

سجائب القرآن

تحقيق د. السيد احمدي

الكتاب

الكتاب

الكتاب



0109126



Bibliotheca Alexandrina

دار ومكتبة الهلال

سَجَائِدُ قُرْآنِ الْفُرْقَانِ

مَجَالُ الْفُرَاتِ

تَأَلَّفَ
الدُّكْتُورُ السَّيِّدُ الْمُحَمَّدُ

عَلِيٌّ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

تُطْلَبُ مَنَشُورَاتُنَا مِنْ
دَارِ وَمَكْتَبَةِ الْهَلَالِ

بَيْرُوت - صَرْبُ ١٥/٥٠٣

دار البحار

بَيْرُوت - صَرْبُ ١٥/٥١٢١



أهداء

الى المعلم الفاضل والأخ الكريم الذي لم أره ولم أعرف عنه شيئاً منذ نيف
وثلاثين عاماً لكنه غائب حاضراً واثراً مقيماً في خاطري وفي كياني .
إلى الأستاذ نبيل متولي حلاوة المدرس بمدرسة بني عبید دقهلية الإلزامية منذ
أوائل الخمسينات تقريباً . أهدي هذه الدراسة .

السيد الجميلي

دعاء

اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك : شهادة أن لا إله إلا أنت
وحدك لا شريك لك ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهي الشرك أعوذ
بك منه وأستعين بك عليه وأستبرئ بك على عواذيه ، فاغفر لي ما بين
ذلك .

اللهم متعني بالنظر إلى وجهك الكريم في دار كرامتك .

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . . وبعد .

التوحيد هو جماع العقيدة الإسلامية ولب جوهرها وهو مجمل في قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له . والثابت أن التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل أجمعين عليهم الصلاة والسلام فكانت رسالاتهم كلها من أجل إعلاء كلمة التوحيد وتوثيقها في الضمائر وتمكينها من القلوب . وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وستون شعبة ^(١) . أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » ^(٢) .

قال تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ ^(٣) . ومعنى ألزمهم أي أختار لهم وهو إلزام تكريم وتشريف ، وكلمة التقوى كما أجمع المفسرون هي قول (لا إله إلا الله) وهذا قول الجمهور .

والله سبحانه وتعالى يختار للمؤمنين ، فإذا ما أراد لهم شيئاً كان خيراً لهم ومتى اكتملت المقومات الإيمانية في فطرة المؤمن أو المؤمنة فإن كل ما يجري عليه من اختيار الله سبحانه وتعالى له والله لا يريد له إلا الخير ، قال تعالى

(١) رواه البخاري - كتاب الإيمان (١ / ٥١) . وفي رواية الإمام مسلم ورجال السنن (بضع وسبعون) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١ / ٦٣) .

(٣) الفتح (٢٦ / ٤٨) . قال الترمذي هي شهادة ألا إله إلا الله . راجع سنن الترمذي بتحفة الأحوذى (٩ / ١٥٠) وطبقات السبكي الكبرى (١ / ٣٢) .

وهو أصدق القائلين :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (١) .

ومعنى هذا أن المؤمن والمؤمنة ليس لهما اختيار أو رأي بل عليهما الانقياد والتسليم (٢) .

يقول الإمام ابن كثير : « وهذه الآية عامة في جميع الأمور والأحوال ، وذلك أنه إذا حكم الله سبحانه وتعالى ، ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته فلا اختيار ولا رأي ولا قول » (٣) .

وقد أخرج الشيخان عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي فلإذا برسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان ، فقلت إنه يكره أن يمشي معه أحد ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر جعلني الله فداك ، قال : يا أبا ذر ، تعال به ، فمشيت معه ساعة فقال : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيراً ، فنقع فيه عن يمينه وشماله ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً ، قال فمشيت ساعة ثم قال لي : أجلس هنا حتى أرجع اليك . . فانطلقت في الحرة (٤) ، فأطال اللبث ، ثم إني سمعته يقول وهو مقبل : وإن زنى وإن سرق ؟ فلما جاء لم أصبر فقلت : يا نبي الله جعلني الله فداك ، من تكلم في جانب الحرة ؟ ما سمعت أحداً يرجع اليك شيئاً ؟ قال : ذاك جبريل عرض لي في جانب الحرة ، فقال : بشر أمتك من مات لا يشرك بالله شيئاً (٥) . دخل الجنة . فقلت يا جبريل وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم » . فقلت يا رسول

(١) الأحزاب (٣٣/٣٦) .

(٢) صفوة التفاسير (١١٢٣/٢٢) .

(٣) مختصر ابن كثير (٩٧/٣) .

(٤) الحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء .

(٥) ومعنى لا يشرك بالله شيئاً إنما يقصد بها الاستبراء من الشرك بكافة أنواعه وصوره حتى يكون التوحيد خالصاً لا تشوبه أية شائبة من ندب غير الله أو الاستعانة بغير الله .

الله : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « نعم وإن شرب الخمر » . وزاد الترمذي في روايته في المرة الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » .

كما أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ ، ومعنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في نفرٍ ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا ، ففزعنا فقمنا ، فكنت أول من فزع ، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ ، حتى أتيت حائطاً للأنصار ، لبني النجار ، فدرت هل أجد له باباً ، فإذا ربيع (جدول) يدخل في جوف الحائط من بئر خارجة ، فاحتفزت (تضاممت) فدخلت على رسول الله ﷺ فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما شأنك ؟ قلت : كنت بين أظهرنا فقامت فأبطأت علينا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، فكنت أول من فزع ، فأتيت هذا الحائط ، فأحتفزت كما يحتفز الثعلب فدخلت ، وهؤلاء الناس ورائي ، فقال : يا أبا هريرة - وأعطاني نعليه - اذهب بنعلي هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة . فكان أول من لقيني عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثني بهما ، من لقيته يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة . فضربني عمر بين ثديي فخررت لإسقي ، فقال : ارجع يا أبا هريرة ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأجهشت بالبكاء ، وركبني عمر فإذا هو على أثري ، فقال رسول الله ﷺ : مالك يا أبا هريرة ؟ فقلت : لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به ، فضرب بين ثديي ، فخررت لأسقي ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمر . . ما حملك على ما فعلت ؟ قال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال : لا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون . فقال رسول الله ﷺ : فخلهم » .

وقد أخرج أبو يعلى وأحمد وابن حبان والبيهقي عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرز على النار » . قال عمر بن الخطاب : « ألا أحدثك ما هي ؟ هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ وأصحابه ، وهي شهادة ألا إله إلا الله » .

قال تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾^(١) . وقد فر جماعة من أهل العلم السؤال عن قول (لا إله إلا الله) وقد قال عز من قائل : ﴿ وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾^(٢) . ومعنى الآية أن الملائكة تناديهم أن هذه هي الجنة التي أعطيتهموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا .

ويقول الإمام القرطبي في جامعه : ورثتم منازلها بأعمالكم ودخولكم إياها برحمة الله وفضله^(٣) . يقول الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله : فمن أقر - أي بشهادة لا إله إلا الله مطمئناً بها قلبه - أجريت عليه الأحكام في الدنيا ، ولم يحكم عليه بكفر إلا أن اقترب فعلاً يدل على كفره مثل سجود للصنم ، ولا يخرج عن هذه الدائرة بفعل المنهيات وترك الأوامر إلا بالشرك أو عمل عملاً يناقض تصديقه^(٤) .

قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾^(٥) . فالشرك هو أخطر أعداء التوحيد وإفراد الحق سبحانه وتعالى

(١) الحجر (٩٢/١٥ - ٩٣)

(٢) الأعراف (٤٣/٧) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٩/٧) .

(٤) راجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٤٦/١) .

(٥) النساء (١١٦/٤) .

وحده بالعبودية .

وفعل المحرمات وترك المأمورات إنما يضعف الإيمان ويستوجب ويقتضي العقاب ولكنه لا يخرج صاحبه عن دائرة الإيمان كذلك روى الإمام مسلم في صحيحه : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة »^(١) .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله »^(٢) .

وذهب العلامة الكبير تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى (١ / ٣٩ - ٤١) (ط . الحلبي) إلى أن تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾^(٣) . قال : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾^(٤) . أي قولوا : لا إله إلا الله ، وهذا قول عكرمة .

وتزكية النفس البشرية لا يكون بأعظم من قول : لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ هل لك أن تزكي ﴾^(٥) .

قال عكرمة : إلى أن تقول : لا إله إلا الله .

(١) راجع صحيح مسلم بروايات كثيرة (١ / ٥٥ - ٦٢) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه من كتاب الإيمان (١ / ٧٥) ومسلم في صحيحه أيضاً (١ / ٥٠) .

(٣) فصلت (٤١ / ٣٠) . وقيل استقاموا على طاعة الله فعلاً وقولاً ثم لم يروغوا وrogان الثعالب .

راجع تفسير القرطبي (١٥ / ٣٥٨) .

(٤) البقرة (٢ / ٥٨) ويقول الصابوني في صفوة التفاسير : أي قولوا ربنا حط عنا ذنوبنا واغفر لنا

خطايانا (١ / ٤٤) .

(٥) النازعات (٧٩ / ١٨) . راجع تفسير هذه الآية في القرطبي (١٩ / ١٩٣) والكشاف

(٤ / ٦٩٥) .

وقد روى الشيخان بسندهما ان رسول الله ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »^(١) .

وقد ورد أن من يحضر الميت عليه أن يلقيه الشهادة لقوله ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » وقوله : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوماً من الدهر ، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه »^(٢) .

وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن زيد بن أسلم قال : قال عثمان بن عفان ، قال رسول الله ﷺ : « إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله ، فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة » .

وقال ﷺ : « احضروا موتاكم ولقنوه لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة فإن الحكيم من الرجال يتحيز عند ذلك المصراع وإن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصراع »^(٣) .

نسأل الله الاستقامة على كلمة التوحيد وأن يتقبل منا وأن يتوفانا موحيدين على البيضاء . إنه سميع مجيب الدعاء .

القاهرة في يوليو سنة ١٩٨٤ م .

السيد الجميلي

ذي القعدة ١٤٠٤ هـ .

صحيح البخاري (١٧/١) ومسلم (١٨٢/١) .

(٢) صحيح مسلم وسنده صحيح .

وهذا الحديث أورده القرطبي في التذكرة (٤٤/١ ، ٤٥) عن أبي نعيم من حديث مكحول عن اسماعيل بن عياش عن أبي معاذ عتبة بن حميد عن مكحول عن وائلة بن الأسقع عن النبي ﷺ وذكره ثم قال : « غريب من حديث مكحول لم نكتبه إلا من حديث اسماعيل » أ هـ .

الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

وهو الإمام محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التميمي البكري أبو المعالي أبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي ، يقال له ابن خطيب الري أحد فقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار وله نحو مائتي مصنف وأهمها تفسيره القيم المسمى بالتفسير الكبير كما أن له أصول الفقه والمحصول وغيره من التصانيف الشائقة الممتعة .

وقد صنف الفخر الرازي ترجمة الإمام الشافعي في مجلد مفيد ، وقد ذكر ابن كثير في تاريخه المشهور أن الفخر الرازي كان له خمسون مملوكاً من الترك ، وكانت مجالس وعظه جامعة يحضرها ويختلف إليها الوزراء والعلماء والملوك والدهماء والعوام أيضاً^(١) .

وكما هي العادة وقع بينه وبين الكرامية خصومات عنيفة بلغت حداً رهيباً وصل إلى تكفيره من قبلهم^(٢) . وقد رماه خصومه بالتهمة الكثيرة التي لم تقم عليها حجة قوية فربما يكون ذلك حقداً عليه وسخيمة والله أعلم .

قال ابن كثير : « وبلغني أنه خلف من الذهب العين مائتي ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار ، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٥٥/١٣) بتصرف .

(٢) وذلك بأن رموه بالكبائر ، وقد قيل إن الكرامية وضعوا له سباً فمات فاغتبطوا بذلك اغتباطاً شديداً ، وقالوا انه ظنين بالمعاصي مع الممالك وغيرهم ، والله أعلم ، بحقيقة ذلك .

محمد بن تكش . أ هـ .

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل : « والرازي صاحب التصانيف المشهورة والفقه والأصول ، كان إمام الدنيا في عصره ، بلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخسمائة » أ هـ .

وكانت وفاة الفخر الرازي - رحمه الله - في ذي الحجة عام ٦٠٦ هـ .
بعد أن خلف تراثاً ضخماً هائلاً ، ونحن لنا الظاهر وما عداه فأمره إلى الله ،
رحم الله الإمام الفخر الرازي وجزاه عن الإسلام وعنا خيراً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هذا الكتاب وعملنا فيه

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من روائع الإمام الفخر الرازي رحمه الله وهو يتناول كلمة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وفوائد هذه الكلمة ، ثم يتناول أسماء كلمة التوحيد ، ثم هو يسرد لنا المباحث المختلفة المتعلقة بكلمة التوحيد وهي وجوه . ثم في فضل المؤمن والحكمة الفقهية في قول لا إله إلا الله . وقد قمنا بمقارنة الأصل بالنسخ المطبوعة ، وكذلك قمنا بتصحيح التصحيفات ، والتحريفات والأخطاء الإملائية وخرجنا الآيات والأحاديث النبوية الشريفة .

وقد حاولنا قدر الإمكان اختصار التعليقات حتى لا تطغى على الأصل الذي فيه تتجلى عبقرية الإمام الرازي في عرضه للمادة وتحليلها ومناقشتها .

نسأل الله السداد والتوفيق وحسن الختام .

الفصل الأول

في

اسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾^(١) .

اعلم ان الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ،
والسبب فيه : أن معرفة التوحيد اشارة الى علم الأصول ، والاشتغال
بالاستغفار اشارة الى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه ما لم
يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة في
آيات كثيرة .

أولها : إن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على
الطاعة فقال : ﴿ رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين ﴾^(٢) . فقلوه :
﴿ هب لي حكماً ﴾ إشارة الى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ،
وقوله : ﴿ والحقني بالصالحين ﴾ اشارة الى استكمال القوة العلمية^(٣) .
بالاجتناب عن طرفي الافراط والتفريط . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب
فقال : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني
وأقم الصلاة لذكري ﴾^(٤) . فقلوه : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ اشارة الى علم
الأصول . وقوله : ﴿ فأعبدني ﴾ اشارة الى علم الفروع .

(١) محمد (١٩/٤٧)

(٢) الشعراء (٨٣/٢٦) .

(٣) القوة العملية في (د) والسياق يناسب ما في (ج)

(٤) طه (١٤ ، ١٣/٢٠) .

وثالثها : أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله تعالى في وقت الطفولية قال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾^(١) . فقوله : ﴿ إني عبد الله ﴾ إشارة الى علم الأصول^(٢) . وقوله ﴿ آتاني الكتاب ﴾ إشارة الى علم الفروع ، فإن احتياجه^(٣) . الى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع ، لا في معرفة ذات الله تعالى وصفاته .

ورابعها : الآية التي نحن فيها^(٤) .

ولا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هؤلاء الأربعة ، فلما ثبت أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ، ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك . وما يؤكد ذلك وجوه أخرى .

الوجه الأول

ان أكثر المفسرين اجمعوا على أن أول آيات أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ هي قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٥) . وهذه الآيات مشتملة على دلائل التوحيد . وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم : تولد الإنسان من النطفة . ثم أنه تعالى نبه في هذه

(١) مريم (٣٠ / ١٩) . راجع التفسير الكبير (٢٠٨ / ٢١) .

(٢) ولا عبودية إلا بعد المعرفة الحقة للمعبود .

(٣) الاحتياج في (ج) وهو خطأ ، إذ أن احتياج المسيح الى الكتاب إنما يكون لمعرفة الأحكام على النقيض من احتياج العوام فإنهم إنما يحتاجون المعرفة الإلهية .

(٤) وحسب سياق الآيات الكريمة فهي خاصة برسولنا ﷺ .

العلق (٩٦ / ١ - ٥) .

الآيات على لطيفة عجيبة ، ولا يتأتى شرحها إلا في معرض السؤال والجواب .

فإن قال قائل : لا بد من رعاية النظم بين أجزاء الكلام ، وههنا ذكر أنه تعالى يولد الانسان من النطفة فقال : ﴿الذي خلق . خلق الإنسان من علق﴾ . ثم ذكر بعده أنه ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ . فأى مناسبة بين هذين الأمرين ؟ .

والجواب : أن أحسن مراتب الإنسان وأدناها : العلقة ، وذلك لأنه يستقذرها كل أحد . وأعلى المراتب وأشرفها : كون الإنسان عالماً محيطاً بحقائق الأشياء ، كأنه قال : عبدي ، تأمل إلى أول حالك حين كنت علقة ، وهي أحسن الأشياء ، وإلى آخر حالك حين صرت ناطقاً عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف المراتب ، حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبير أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون^(١) .

الوجه الثاني

أنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة الى قوله : ﴿وأولئك هم المفلحون﴾^(٢) . وذم الكافرين في آيتين : أولهما قوله : ﴿إن الذين كفروا﴾ إلى قوله : ﴿ولهم عذاب عظيم﴾^(٣) . ثم ذم المنافقين في

(١) ولا ينفصل السلوك الإنساني عن العقيدة الإلهية بحال، ففي الآية إشارة الى ان القراءة الأولى خاصة بالوحي المباشر من الله لرسوله ﷺ ، أما الثانية فخاصة بالعلوم الإنسانية والعقلية التي اهتدى اليها الإنسان .

(٢) البقرة (١ / ٢ - ٥) .

(٣) البقرة (٦ / ٢ - ٧) .

ثلاث عشرة آية : أولها قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ إلى قوله : ﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم ﴾^(١) . ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على اثبات التوحيد والنبوة والمعاد فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة .

فبدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده ، وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل : أولها : أنه استدل على التوحيد بأنفسهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾^(٢) . وثانيها بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والذين من قبلكم ﴾^(٣) وثالثها : بأحوال أهل الأرض ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ السذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾^(٤) ورابعها : بأحوال أهل السماء ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والسماء بناء ﴾^(٥) وخامسها : بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾^(٦) فإن السماء كالأب ، والأرض كالأم ، ينزل المطر^(٧) . من صلب السماء إلى رحم الأرض ، فتتولد منها أنواع النبات ، ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾^(٨) .

وذلك : أن هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . وذلك : أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر ، فلإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت به^(٩) . يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه

(١) البقرة (٢/٨ - ٢١) .

(٢) البقرة (٢/٢١ ، ٢٢) .

(٣) ينزل قطرة . على هامش (ج) من نسخة أخرى .

(٤) يريد القول بأن حدوثها ممكن لكنها ليست واجبة إذ انها متغيرة .

الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع القادر^(١) كما قال تعالى : ﴿ لو كان
فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾^(٢) . فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمسة
ذینك المطلوبین : احدهما : إثبات الصانع . والثاني : اثبات كونه واحداً ،
لأن قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾^(٣) . يشتمل على إثبات الإله ،
وعلى إثبات كونه واحداً .

ثم ههنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية ، وهي : أن الترتيب الحسن
المفيد في التعليم أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقياً إلى
الأخفى فالأخفى . وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية . وذلك أنه سبحانه
وتعالى قال : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾ . فجعل استدلال كل عاقل
بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل أحد على أحوال نفسه
أتم من اطلاعه على أحوال غيره ، فسيجد بالضرورة من نفسه (أنه) تارة
يكون مريضاً ، وتارة صحيحاً ، وتارة ملتدأ ، وتارة متألماً ، وتارة شاباً ،
وتارة شيخاً ، والانتقال من بعض هذه الصفات الى غيرها ليس باختيار أحد
من البشر .

وأيضاً فقد يجتهد في طلب كل شيء فلا يجد ، وكثيراً ما يكون غافلاً
عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم :
أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر . وربما اجتهد العاقل الذكي
في الطلب فلا يجد ، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب . فعند هذه
الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي رضي الله عنه :

ومن الدليل على القضاء كونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

(١) على اساس دقة الهندسة الإلهية في الخلق سبحانه وتعالى .

(٢) الأنبياء (٢٢ / ٢١)

(٣) البقرة (٢٢ / ٢)

ويظهر له أن هذه المطالب إنما تحصل وتيسر بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ولا مغالبتها^(١) . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾^(٢) .

ثم أن هذه الاعتبارات غير محصورة ، فتارة كما في قوله تعالى : ﴿ أمن يجب المضطر إذا دعاه ﴾^(٣) . وأخرى كما في قوله : ﴿ قل من يكلاكم بالليل والنهار ﴾^(٤) . وبالجمل ، فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره ، لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل .

ثم هذه المراتب تتلوها مرتبة أخرى ، وهي علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده . ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة ، وهي معرفة الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق ، فإنها مختلفة الأجزاء ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾^(٥) . وقال أيضاً : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ﴾^(٦) . ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة ، وهي العلم بأحوال الأفلاك ، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل ، والصغر والكبر ، والبطء والسرعة ، واختلاف أحوال الكواكب المذكورة فيها ، كما قال : ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾^(٧) . وقال : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾^(٨) . وقال : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾^(٩) .

(١) وهذا فقد أثبت العقل البشري الإنساني بالحجج العلمية القطعية أن لا بد للخلق من خالق فلا يمكن استحداث الخلق من العدم ، وإن اختلفت التأويلات فإنها تجتمع في النهاية عند حظيرة التوحيد .

(٢) الزخرف (٤٣/٣٢) .

(٣) النمل (٦٢/٢٧) .

(٤) الأنبياء (٤٢/٢١) .

(٥) الرعد (٤/١٣) .

(٦) فاطر (٢٧/٣٥) .

(٧) الأنبياء (٣٣/٢١) .

(٨) المزمل (٩/٧٣) .

(٩) الرحمن (١٧/٥٥) .

وقال : ﴿ فلا أقسم ببرب المشارق والمغارب ﴾ (١) . وقال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ (٢) . وقال : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ (٣) . وقال في سورة نوح : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ (٤) . وقال في سورة يس : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ (٥) . وقال : ﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ﴾ (٦) .

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة ، وهي الأحوال المنزلة من السماء الى الأرض ، وهي نزول المطر (٧) . من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض ، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات ، بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في الشكل والطعم (٨) والخاصية . فمنه ما يكون قوتاً ، ومنه ما يكون فاكهة ، ومنه ما يكون دواء ، ومنه ما يكون اداماً ، ومنه ما يكون سماً ، ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات . فذكر في تفصيل المطعمومات قوله : ﴿ إنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبثنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٩) . . وقال : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ (١٠)

(١) المعارج (٤٠/٧٠)

(٢) الأعراف (٥٤/٧)

(٣) الفرقان (٦١ / ٢٥)

(٤) نوح (١٦ ، ١٥/٧١)

(٥) يس (٤٠/٣٦)

(٦) التكويد (١٦ ، ١٥/٨١)

(٧) نزول القطر في [ج]

(٨) والطبع في (ج) وما جئنا به من نسخة أخرى .

(٩) عبس (٢٥/٨٠ - ٣٢)

(١٠) الأنعام (٩٥/٦)

بل إذا نظرت الى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد وجهيها في غاية الحمرة ، والوجه الآخر في غاية الصفرة^(١) ، مع انها تكون في غاية الرقة ، وقلة الشخانة ، ونحن نعلم بالضرورة ان نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الرقيقة جداً من الورد نسبة واحدة . فاختصاص أحد وجهي تلك الوردة بالحمرة ، والآخر بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة ، لا بالعلية والطبيعة .

وإذا عرفت ذلك ظهر لك أن الله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة ، وتقديم بعضها على بعض حكمة بالغة ، وأسراً مرعية ، فسبحان من لا نهاية لعلمه ، ولا غاية لحكمته .

ثم إن الله تعالى لما بين دلائل إثبات الصانع ووحدانيته أردف هذه المسألة بمسألة اقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾^(٢) . وذلك لأن المتحدى به وقع بكل القرآن في قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(٣) . فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾^(٤) فلما عجزوا عنه أتبعه بالتحدي بسورة واحدة قال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾^(٥) . فلما عجزوا أتبعه بالتحدي بآية فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾^(٦) . فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي ظهر كونه

(١) لعلها خضراء باهتة وليست في غاية الصفرة كما أورد المؤلف .

(٢) البقرة (٢٣/٢)

(٣) الإسراء (١٧ / ٨٨)

(٤) هود (١٣/١١)

(٥) البقرة (٢٣/٢)

(٦) الطور (٣٤/٥٢)

معجزاً باهراً ، وبرهاناً قاهراً^(١) .

ثم أنه اتبع هذه المسألة بمسألة المعاد ، وهي قوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾^(٢) . كأنه قيل إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين ، ولو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ، ويجد المسيء عاقبة أساءته ، لم يكن ذلك لائقاً بحكمته . وهذا هو المراد من قوله : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾^(٣) . وقال في سورة طه : ﴿ وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾^(٤) . وقال في ص : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾^(٥) .

فظهر بما ذكرنا : أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، فثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ، فلهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار ، فقال : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾^(٦) .

الوجه الثالث في تقرير هذا الأصل

أنه تعالى قال في أول سورة النحل : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾^(٧) .

(١) وقرآننا قاهراً (هامش ج)

(٢) البقرة (٢٥/٢)

(٣) النجم (٣١/٥٣)

(٤) طه (١٥ ، ١٤/٢٠)

(٥) ص (٢٨/٢٨)

(٦) محمد (١٩/٤٧)

(٧) النحل (٢/١٦) .

فقلوه : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ إشارة الى علم الأصول . وقولوه :
﴿ فاتقون ﴾ إشارة الى علم الفروع .

الوجه الرابع

إن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة^(١) عند فرعون قال له
فرعون : ﴿ وما رب العالمين ﴾^(٢) . . يعني : إن رسالتك متفرعة على اثبات
أن للعالم إلهاً ، فما الدليل عليه ؟ ثم أن موسى عليه السلام لم ينكر [عليه]
هذا السؤال ، بل اشتغل بذكر الدلائل على وجود الصانع ، فقال : ﴿ ربكم
ورب آبائكم الأولين ﴾^(٣) ، فاستدل على وجود الصانع أولاً بأحوال نفسه ،
وثانياً بأحوال آبائه ، وهو نظير قوله في سورة البقرة : ﴿ اعبدوا ربكم الذي
خلقكم والذين من قبلكم ﴾^(٤) .

فظهر بما ذكرنا من الوجوه الفائدة في انه تعالى ذكر أولاً قوله : ﴿ فاعلم
أنه لا إله إلا الله ﴾ . وذكر ثانياً قوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ . والله أعلم
بحقائق كتابه . فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على [وجوب] تقديم
علم الأصول على علم الفروع . ويؤكد هذا المعنى^(٥) . بعشر حجج أخرى :

الحجة الأولى : وهي أن شرف العلم بشرف المعلوم ، فمهما كان المعلوم
أشرف كان العلم الحاصل به أشرف ، ولما كان أشرف المعلومات ذات الباري
تعالى وصفاته ، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم .

(١) ما كان يصح أن يقول المؤلف (ادعى الرسالة) بل يقول (اظهر الرسالة) فلعل هذه كبتة من
الناسخ .

(٢) الشعراء (٢٣ / ٢٦)

(٣) الشعراء (٢٦ / ٢٦)

(٤) البقرة (٢ / ٢١) .

(٥) والذي أورده من هامش (ج) من نسخة أخرى .

الحجة الثانية : أن العلم إما أن يكون دينياً ، أو يكون غير ديني ، ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني . وأما العلم الديني فأما أن يكون علم الأصول أو ما عداه . أما ما عدا علم الأصول فإن صحته متوقفة^(١) على صحة علم الأصول ، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى ، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم . وأما المتحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ ، وذلك فرع على إثبات نبوته^(٢) . والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى ، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة . فثبت أن هذه العلوم مفسرة لعلم الأصول . وظاهر أن علم الأصول غني عنها بأسرها^(٣) ، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف .

الحجة الثالثة : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خسارة ضده ، فكما كان ضده شيئاً أخس ، كان هو أشرف ، ولا شك أن ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم .

الحجة الرابعة : أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه ، وتارة لشدة الحاجة إليه ، وتارة لقوة براهينه ودلائله ، وذلك : أن علم الهيئة أشرف من علم الطب ، مع أن الحاجة إلى الطب أشد ، وعلم الحساب أشرف منهما ، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب^(٤) . وإن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهينه هذا العلم أقوى . وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال^(٥) .

أما شرف هذا الموضوع فذلك لأن المباحث عنه ذات الله تعالى

(١) (موقوفة) على هامش ج من نسخة أخرى .

(٢) ولا تتم النبوة إلا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى قبل كل شيء .

(٣) العلم بالأصول غني عن النبوات والأحكام والثاني لا يستغني عن الأول .

(٤) يقصد المؤلف أن علم الهيئة أشرف من الهيئة والطب معاً

(٥) أن يجمع إليه شرف الموضوع وقوة الحجج .

وصفاته ، وقدرته وعظمته ، ولا شك في أنه أشرف ، وأما شدة الحاجة اليه فظاهر (وذلك)^(١) . لأن الحاجة إما في الدين وإما في الدنيا .

أما في الدين فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم ، ويتخلص من العقاب الأليم ، ويصير من زمرة الملائكة المقربين ، في جوار رب العالمين ، ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم ، مستوجباً للعقاب الأليم ، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين ، وبقي في دركات الضلالة أبد الأبدن ، ودهر الداهرين .

وأما في الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب ، والرغبة من العقاب^(٢) ، وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم .

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية ، وهي أقوى العلوم والمعارف . فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة الخامسة : أن هذا العلم لا يتطرق اليه النسخ والتغيير^(٣) . ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم ، بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة السادسة : أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم ، وقد يكون من أهل النجاة^(٤) ، وإن لم يعلم شيئاً من الفقه أصلاً البتة . أما أنه لا بد في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله البتة لا يكون من أهل النجاة بالاجماع . وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه ، فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال ، فإذا بلغ وقت

(١) ما بين الحاصرين على هامش (ج)

(٢) وكثير من الأمم الدارسة أبيدت بسبب جهلها بأصول الدين وقد ورد ذكرها في القرآن في أكثر من موضع .

(٣) أي أنه ثابت والأخبار الثابتة لا تنسخ .

(٤) على هامش (ج) من نسخة أخرى ، وفي (د) المدرجات ، والسياق يطابق ما ورد في (ج) .

الضحوة الكبرى ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات . فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمناً حقاً . ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة ، ثم لما بلغت حاضت ، وبقيت مدة أخرى في البلوغ ، وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالصيام ولا بالقراءة^(١) ، فإذا انقضى زمان حيضها وماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنة حقاً . فعلمنا ان النجاة ، واستيجاب الدرجات ، لا يتوقف على الفقه ، وهو موقوف على علم الأصول .

الحجة السابعة : أن الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول أشرف من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع ، بدليل أنه قد جاء في فضيلة ﴿ قل هو الله أحد ﴾^(٢) . و﴿ آمن الرسول ﴾^(٣) ، وآية الكرسي ، و﴿ شهد الله ﴾^(٤) . ما لم يجيء في فضيلة قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾^(٥) ، و﴿ أحل الله البيع ﴾^(٦) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾^(٧) الآية . ولذلك فأن الزهاد والعباد يواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الإلهيات دون الآيات المشتملة على الأحكام .

الحجة الثامنة : أن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وفي اثبات النبوات والمعاد ، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة .

وأما الآيات الواردة في القصص فالمقصود منها أما التوحيد ، وأما

(١) وهذه فترة الحيض

(٢) الإخلاص (١ / ١١٢)

(٣) البقرة (٢ / ٢٨٥ ، ٢٨٦)

(٤) آل عمران (٣ / ١٨)

(٥) البقرة (٢ / ٢٢٢)

(٦) البقرة (٢ / ٢٧٥)

(٧) البقرة (٢ / ٢٨٢)

النبوة . أما التوحيد فهو : الإستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته ، كما قال : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ﴾^(١) . وأما على النبوة فمن وجهين :

الأول : بالفاظ مختلفة كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾^(٢) . ووجه الإستدلال : أنه عليه السلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يقرأ كتاباً ، ولم يتلمذ لأستاذ ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني : أنه يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة بالفاظ مختلفة ، وكل ذلك متشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالالفاظ الفصيحة ، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالالفاظ الفصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر . فدل [ذلك] على أن معظم القرآن في علم الأصول ، فلنشر الى معاني الدلائل^(٣) :

أما دلائل التوحيد فتارة بانخلاق الانسان من النطقة ، والله تعالى ذكر هذا الدليل أكثر من ثمانين مرة في القرآن . وتارة بدلائل الآفاق ، وهي أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات ، وهي أظهر من أن تحتاج إلى الشرح .

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول : أما الذي يدل على العلم فقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾^(٤) . ثم أردفه بقوله : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾^(٥) . وهذا

(١) يوسف (١٢ / ١١١)

(٢) الشعراء (٢٦ / ١٩٢ - ١٩٤)

(٣) معاد الدلائل : في (ج)

(٤) آل عمران (٥ / ٣)

(٥) آل عمران (٦ / ٣)

دليل المتكلمين ، فإنهم يستدلون بأحكام الأفعال واتقانها على علم الفاعل ،
وههنا استدل سبحانه بتصوير الصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل
عالمًا .

وقال أيضاً : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(١) . وهو غني
عن تلك الدلالة . وقال : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾^(٢) .
وهذا التنبيه للدلالة على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات^(٣) ، لأنه تعالى يخبر
عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر ، وذلك يدل على كونه
عالمًا بكل المغيبات .

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن ، من الثمرات
المختلفة ، والحيوانات المختلفة ، مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك ، فإنه يدل
على صفة القدرة . وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية .

الحجة التاسعة : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم
كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ، ولندكر ما ينبه على المقصود :

أما الملائكة عليهم السلام لما قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ﴾^(٤) . فكان المراد من خلق هؤلاء [ليكونوا] سبب الشر
والفتنة ، وذلك قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح^(٥) . فأجابهم الله تعالى
بقوله : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾^(٦) . والمعنى والله أعلم : إني لما كنت
عالمًا بكل المعلومات ، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلموها
أنتم . فلما سمعوا ذلك سكتوا .

(١) الملك (١٤/٦٧)

(٢) الأنعام (٥٩/٦)

(٣) وفي هذا أبلغ على القائلين أن الله يعلم الكلّيات فقط ولا يهتم بالجزئيات .

(٤) البقرة (٣٠/٢)

(٥) وهذا يدلنا على أن الملائكة مشغولون بدلائل التوحيد .

(٦) البقرة (٣٠/٢)

وأما مناظرة الله مع إبليس فالقرآن ناطق بها^(١) .

وأما الأنبياء عليهم السلام فأولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة ، وذلك محض الاستدلال^(٢) .

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾^(٣) . ومعلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشرعية ، فلم يبق إلا أنها في التوحيد والنبوة . وأيضاً فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار في قوله : ﴿ استغفروا ربكم أنه كان غفاراً ﴾^(٤) . ففي الحال ذكر ما يدل على التوحيد فقال : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾^(٥) .

وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب ، وله مقامات :

أولها : مع نفسه ، وهو قوله : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ﴾^(٦) إلى آخر الآية . فهذه طريقة المتكلمين . فإنه استدل بأفولها على حدوثها ، ثم استدل بحدوثها^(٧) على وجود محدثها ، كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾^(٨) . ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك

(١) وهي تسفر عن طلاقة القدرة الإلهية وعدم تقيدها بالأسباب .

(٢) راجع كتابنا مواقف يوم القيامة .

(٣) هود (٣٢/١١)

(٤) نوح (١٠/٧١)

(٥) نوح (١٥/٧١ ، ١٦)

(٦) الأنعام (٧٦/٦)

(٧) بأفولها . على هامش (ج) من نسخة أخرى لا يقتضيها السياق .

(٨) الأنعام (٧٨/٦ ، ٧٩)

فقال : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ﴾^(١) . وأيضاً ذكر في وقت دعائه ما هو محض الاستدلال ، وهو قوله : ﴿ الذي خلقتني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين ﴾^(٢) . إلى آخر الآيات .

وثانيها : مناظرة إبراهيم مع أبيه ، وهي قوله : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾^(٣) . إلى آخر الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه ، تارة بالقول ، وأخرى بالفعل . أما القول فقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾^(٤) . وأما بالفعل فقوله تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾^(٥) .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه ، حيث قال : ﴿ ربّي الذي يحيي ويميت ﴾^(٦) إلى آخر الآية . فهذا كل مباحثة إبراهيم عليه السلام في معرفة المبدأ .

وأما بحثه في معرفة المعاد فهو كقوله : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾^(٧) . إلى آخر الآية .

واعلم أن موسى عليه السلام كان يقول في الاستدلال على [طريقة] دلائل إبراهيم . وذلك أنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولهارون : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾^(٨) . فرد بقوله : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء

(١) الأنعام (٨٣/٦)

(٢) الشعراء (٧٨/٢٦ ، ٧٩)

(٣) مريم (٤٢/١٩)

(٤) الأنبياء (٥٢/٢١)

(٥) الأنبياء (٥٨/٢١)

(٦) البقرة (٢٥٨/٢)

(٧) البقرة (٢٦٠/٢)

(٨) طه (٤٩/٢٠)

خلقه ثم هدى ﴿١﴾ . وهذا هو الدليل الذي ذكره ابراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ ﴿٢﴾ . ثم حكى الله تعالى عن موسى في سورة الشعراء أنه قال لفرعون : ﴿ربكم ورب آبائكم الاولين﴾ ﴿٣﴾ . وهذا هو الذي عول عليه ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ ﴿٤﴾ . فلما لم يكتف فرعون بذلك ، وطالبه بدليل آخر ، قال موسى : ﴿رب المشرق والمغرب﴾ ﴿٥﴾ وهذا هو الذي عول عليه ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ ﴿٦﴾ .

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام . ثم أن موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال : ﴿أو لو جئتكم بشيء مبين﴾ ﴿٧﴾ . وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان : أحدهما في بيان إثبات التوحيد ، والآخر في إثبات النبوة .

أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو في قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ ﴿٨﴾ . وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم . أما القدرة فقوله : ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ ،

(١) طه (٥٠ / ٢٠)

(٢) الشعراء (٧٨ / ٢٦)

(٣) الشعراء (٢٦ / ٢٦)

(٤) البقرة (٢٥٨ / ٢)

(٥) الشعراء (٢٨ / ٢٦)

(٦) البقرة (٢٥٨ / ٢)

(٧) الشعراء (٣٠ / ٢٦)

(٨) النمل (٢٥ / ٢٧)

وسمى الخبء بالمصدر^(١) ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق ، وأخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات ، وتقديره ما قدمناه^(٢) . وأما العلم فيدل على ثبوته قوله : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس ، وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين : الأول الإله . ويجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء ، ويكون عالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك ، فهي لا تكون إلهاً . أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فكما أنه واجب الوجود لذاته ، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقصورات وبعض المعلومات دون البعض . وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناهٍ ، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات . وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات . وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار [فهي ليست إلهاً] فرجع حاصل هذا الدليل الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾^(٣) .

الوجه الثاني : أن هذا اشارة الى دليل ابراهيم في قوله : ﴿ ربّي الذي يحيي ويميت ﴾^(٤) . إلى آخر الآية . وبيانه : أنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق الى المغرب بعد أفولها ، فهذا هو المراد بإخراج الخبء في السموات والأرض^(٥) ، وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام : ﴿ لا أحب الأفلين ﴾^(٦) . ومن قوله : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق

(١) وفعله خبأ وأريد به المفعول أي يقصد المخبوء من الرزق .

(٢) حيث ذكر المؤلف نزول المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض . . . الخ .

(٣) مريم (٤٢/١٩)

(٤) البقرة (٢٥٨/٢)

(٥) وهذا من كمال القدرة الإلهية وهيمنتها .

(٦) الأنعام (٧٦/٦)

فأتى بها من المغرب ﴿١﴾ . ومن قول موسى : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ (٢) .

وحاصل الكلام رجع إلى أن أقول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر ، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها ، والمتصرف فيها أحق .

وأما إخراج الخبء من الأرض فالمراد منه : إخراج النطفة من بين الصلب والترائب ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربى الذي يحيى ويميت ﴾ .

ومن قول موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ (٣) .

فإن قيل : إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك . فإن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ ربى الذي يحيى ويميت ﴾ . ثم قال : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ . وموسى عليه السلام قال : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ثم قال ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ . ثم عكس سليمان هذا الترتيب ، فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال : ﴿ الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ﴾ (٤) .

فاعلم أن موسى وإبراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهم مع من ادعى إلهية البشر . فإن غرود وفرعون كل واحد منهما كان يدعى الإلهية ، فلا جرم ابتداء إبراهيم وموسى بإبطال الإلهية للبشر ، ثم انتقلا إلى إبطال الإلهية للأفلاك . وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعى إلهية الشمس ، فإن الهدهد قال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ (٥) . فلا جرم ابتداء بذكر السموات ، ثم ذكر الأرضيات .

(٥) النمل (٢٧ / ٢٤)

(١) البقرة (٢ / ٢٥٨)

(٢) الشعراء (٢٦ / ٢٨)

(٣) الشعراء (٢٦ / ٢٦)

(٤) النمل (٢٧ / ٢٥)

ثم ان سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها : ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾^(١) . والمراد : أنه لما بين افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك الى مدبر خالق ، ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب ، سواء كان عظيماً أو صغيراً ، فقال : ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد .

أما المقام الثاني الذي [هو] في تقرير دلائل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾^(٢) .

واعلم أن كثيراً من الناس قالوا : ذلك الشخص الذي قال : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ هو غير سليمان ، وظنوا أن الكاف في قوله : ﴿ آتيك ﴾ خطاب مع سليمان ، وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون القائل غير سليمان . . . إلا أن هذا ضعيف ، بل الصحيح عندنا : أن الآتي بذلك العرش هو سليمان . وذلك أنه عليه السلام قال : ﴿ أياكم يأتيني بعرشها ﴾ على سبيل التحدي . فقال العفريت : ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ . فقال سليمان عليه السلام للعفريت : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ . فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً لتحديه الذي ذكره أولاً ، وكسراً للعفريت ، وإظهاراً للمعجزة^(٣) .

والذي يدل عليه وجوه :

(١) النمل (٢٦/ ٢٧)

(٢) النمل (٢٧/ ٣٨ - ٤٠)

(٣) وهذا كله حدث بإرادة الله وبطلاقة القدرة الإلهية اللاحدودة والتي لا يحدها مكان أو زمان .

الأول : أن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولاً ، ثم افتقر بعد ذلك الى تقرير دلائل النبوة ، ومع بلقيس فإن سليمان قد كلفها الاقرار بالتوحيد والنبوة^(١) ، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك دلائل النبوة ، وهذا معجز دال على النبوة ، فوجب جعله معجزاً لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل .

الثاني : أن لفظة « الذي » موضوعة في اللغة للإشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾^(٢) . وقال : ﴿ وورث سليمان داود ﴾^(٣) . فوجب انصرافه اليه . وأقصى ما في الباب : أن آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب ، إلا أن سليمان كان أعرف من آصف ، لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره ، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى .

الثالث : إن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصل لآصف دون سليمان لأقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان ، وانه غير جائز .

الرابع : ان سليمان لو افتقر في هذا الغرض الى آصف لأقتضى قصور

(١) وذلك بأن أقام عليها الحجة عندما بعث اليها كتابه ﴿ انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وآتوني مسلمين ﴾ [النمل - (٢٧/٣٠ ، ٣١)] وفي قوله (مسلمين) تسليم بالوحدانية لله تعالى وبالنبوة لسليمان . قال ابن عباس : أي موحدين ، وقال سفيان طائعين . راجع صفوة التفاسير للصابوني (١٩ / ١٠٠٤) بتصرف .

(٢) الأنبياء (٢١ / ٧٩) وتام الآية دليل على علمها ﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ راجع تفسير القرطبي (١١ / ٣٢٠) ومختصر ابن كثير (٢ / ٥١٦) وصفوة التفاسير (١٧ / ٨٦٦) .

(٣) النمل (٢٧ / ١٦) ومعنى ميراث سليمان داود أنه ورث علمه لقوله ﷺ « نحن الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . وقيل ورث سليمان أباه في النبوة والعلم والملك دون سائر أولاده وقد قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثة مال لكانوا جميعاً فيه سواء . راجع تفسير الإمام الطبري (١٩ / ٨٧)

سليمان في عين الخلق .

الخامس : ان سليمان قال : ﴿ هذا من فضل ربي ليُبْلَوْنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ﴾^(١) . وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان^(٢) . فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة ، والله اعلم .

وأما عيسى عليه السلام ، فإنه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد ، فقال : ﴿ إني عبد الله ﴾^(٣) . وشهادة حاله دالة على صدق مقالته ، وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد .

أما دلالتها على التوحيد فإن انطاق الطفل في زمان الطفولية لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات . وأما دلالتها على النبوة ففي دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود ، فإنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية ، والدرجة الشريفة . . . ثم أنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل الى بيان الشرائع فقال : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾^(٤) .

وأما محمد ﷺ فاعلم ان اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد اظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير . وذلك أنه ﷺ كان مبتلياً بالرد على جميع فرق الكفار :

الأولى : الدهرية ، الذين كانوا يقولون : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾^(٥) . والله تعالى أبطل قولهم ، فإنه خالق الدهر والزمان .

(١) النمل (٢٧ / ٤٠)

(٢) وهذا من قبيل الفتنة والإبتلاء ، وكان سليمان عليه السلام يعلم ذلك جيداً .

(٣) و (٤) مريم (١٩ / ٣٠) .

(٥) الجاثية (٤٥ / ٢٤) ومعنى الآية : أي وقال المشركون : لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا يموت

بعضنا ويحيا بعضنا الآخر ، ولا بعث ولا آخره ولا نشور ، وهذا قول الدهرية الكفار ومشركي

العرب الوثنيين ، الذين أنكروا المعاد والبعث . راجع مختصر ابن كثير (٣ / ٣١١) بتصرف .

والثانية : الذين ينكرون القادر المختار^(١) ، والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات ، وأصناف الحيوانات ، مع اشتراك الكل في تأثير الطبائع والأفلاك .

والثالثة : الذين أثبتوا شريكاً مع الله ، وذلك الشريك اما أن يكون علوياً أو سفلياً .

أما الشريك العلوي فمنهم من أثبت أن ذلك الشريك هو الكوكب ، والشمس والقمر ، والله تعالى أبطله بدليل الخليل ، وهو قوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾^(٢) . ومنهم من قال : هو النور والظلمة ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾^(٣) . ومنهم من قال : يزدان وأهرمن^(٤) ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾^(٥) . ويقوله : ﴿ إذن لا بتغوا الى ذي العرش سبيلاً ﴾^(٦) . ويقوله : ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾^(٧) .

وأما الشريك السفلي فمنهم من قال بإلهية المسيح ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾^(٨) . ومنهم من قال : إنه الوثن ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾^(٩)

والرابعة : الذين طعنوا في أصل النبوة ، وحكي الله تعالى عنهم قولهم : ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾^(١٠) . ثم رد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾^(١١) .

(١) وهم اقاتلون بقوانين الصدقة والاحتمالات وهذا واضح بطلانه .

(٢) الأنعام (٧٦/٦)

(٣) الأنعام (١/٦)

(٤) وهما آله الخير وإله الشر عند الفرس .

(٨) النساء (١٧٢/٤)

(٩) النحل (١٧/١٦)

(٥) الأنبياء (٢٢/٢١) .

(١٠) الإسراء (٩٤/١٧)

(٦) الإسراء (٤٢/١٧)

(١١) الزخرف (٣٢/٤٣)

(٧) المؤمنون (٩١/٢٣)

والخامسة : الذين طعنوا في التكليف ، تارة بأنه لا فائدة فيه ، والله تعالى رد عليهم بقوله : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾^(١) . وتارة أخرى بأن الحق هو الجبر ، وهو لا ينافي صحة التكليف ، والله تعالى أجاب عنه بقوله : ﴿ لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾^(٢) .

والسادسة : الذين سلموا أصل النبوة ، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثم ان طعنهم كان من وجوه : تارة بالطعن في القرآن ، من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات ، من البعوضة والنملة والذباب ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾^(٣) . وتارة بأن القرآن سحر وشعر ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾^(٤) . وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾^(٥) . فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا ﴾^(٦) . وذلك أن الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بُشْرًا ﴾^(٦) . وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماً بطريق التهمة ، فأجاب الله بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾^(٧) . وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من اللقاء الجن والشياطين ، كما في سورة الشعراء ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾^(٨) .

(١) الإسراء (١٧/٧)

(٢) الأنبياء (٢١/٢٣)

(٣) البقرة (٢/٢٦)

(٤) البقرة (٢/٢٣)

(٥) الإسراء (١٧/٢٩)

(٦) الإسراء (١٧/٩٣)

(٧) الفرقان (٢٥/٣٢)

(٨) الشعراء (٢٦/٢٢١ ، ٢٢٢)

والسابعة : الذين أنكروا الحشر والنشر ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام .

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم : قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾^(١) . وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع ، لأن من أنكروا نبوته فلا فائدة من الخوض معه في تفاريع الأحكام ، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه . فعلمنا بهذا أن الجدل المأمور به في تقرير دلائل الأصول . فإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أمته ، لقوله تعالى : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾^(٢) . ولقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾^(٣) . وقوله عليه السلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي »^(٤) .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾^(٥) . وذلك يقتضي أن الجدل مع العلم لا يكون مذموماً . وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾^(٦) . ومن المعلوم أن ذلك الجدل كان في تقرير دلائل الأصول ، وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدل في تقرير الدلائل مستحسن ، ثبت أن المراد من قوله تعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل

(١) النحل (١٦/١٢٥)

(٢) الأنعام (٦/١٥٣)

(٣) آل عمران (٣/١٣١)

(٤) أخرجه أبو داود ، وقام الحديث : « عضوا عليها بالنواجذ لا يزيغ عنها ألا هالك » . وأهل السنة هم الفرقة الناجية .

(٥) الحج (٢٢/٨)

(٦) هود (١١/٣١)

هم قوم خصمون ﴿١﴾ . محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل .

الحجة الثانية عشرة : انه تعالى أمر بالنظر : فقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ (٢) . ﴿ أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ﴾ (٣) . ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ (٤) . ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ (٥) . ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ (٦) .

الحجة الثالثة عشرة : انه تعالى ذكر التفكير في معرض المدح فقال : ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ (٧) . ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ (٨) . وأيضاً ذم المعرضين فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (٩) . ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ (١٠) .

الحجة الرابعة عشرة : انه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (١١) . وقال : ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ (١٢) . ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ (١٣) .

(١٣) الشعراء (٧٤ / ٢٦)

(١) الزخرف (٥٨ / ٤٣)

(٢) النساء (٨٢ / ٤)

(٣) الغاشية (١٧ / ٨٨)

(٤) فصلت (٥٣ / ٤١)

(٥) الرعد (٤١ / ١٣)

(٦) الأعراف (١٨٥ / ٧)

(٧) الزمر (٢١ / ٣٩)

(٨) آل عمران (١٣ / ٣)

(٩) يوسف (١٠٥ / ١٢)

(١٠) الأعراف (١٧٩ / ٧)

(١١) الزخرف (٢٣ / ٤٣)

(١٢) البقرة (١٧٠ / ٢) .

وقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ (١) . قال في والد
إبراهيم عليه السلام : ﴿ لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً ﴾ (٢) . وكل
ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد .

الحجة الخامسة عشرة : أنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً ﷺ عن
أمور ، كقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ (٣) . ﴿ يسألونك عن
الأنفال ﴾ (٤) . فذكر في هذه المواضع كذا وكذا ، إلا في آية واحدة وهي
أنهم سألوه عن مسألة أصولية ، وهي قوله : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل
ينسفها ربي نسفاً ﴾ (٥) . الآية . فهنا حرف التعقيب . يعني : يا محمد ،
اذكر هذا الجواب في الحال ، لأن هذه المسألة أصولية ، ولا يجوز تأخير
الجواب عنها ، لأن ذلك يقدح في الإيمان ، أما سائر المسائل فإنها فروعية ،
فلا يكون تأخير الجواب عنها الى وقت الحاجة ضاراً .

ثبت بجميع هذه الدلائل وجوب تقديم الأصول على الفروع ، فلا
جرم . قال الله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين
والمؤمنات ﴾ (٦) . فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والله
أعلم .

(١) الفرقان (٤٢/٢٥)

(٢) مريم (٤٦/١٩)

(٣) البقرة (٢٢٢/٢)

(٤) الأنفال (١/٨)

(٥) طه (١٠٥/٢٠)

(٦) محمد (١٩/٤٧)

الفصل الثاني

في

فوائد كلمة لا إله إلا الله

الفائدة الأولى :

اعلم ان هذا الذكر لما كان من أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع اليه ، والولي لما جاءته المحنة فزع اليه .

أما العدو فإن فرعون لما قرب من الغرق قال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾^(١) . والمعنى : أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم ، ولا الماء عذاباً كما في حق فرعون^(٢) ، إلا الذي آمَنتُ به بنو إسرائيل .

وأما الولي فكما في حق يونس . قال الله تعالى : ﴿ فَنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾^(٣) . والمعنى : لا إله إلا أنت ، فانك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان حياً في بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال^(٤) .

فإن قيل : كل واحد منها نادى ، فلماذا قبل نداء احدهما ولم يقبل نداء الآخر ؟

(١) يونس (٩٠ / ١٠) .

(٢) في حقه (في الأصلين) والذي أوردناه على هامش (ج) من نسخة اخرى .

(٣) الأنبياء (٨٧ / ٢١)

(٤) والنجاة من الكرب محققة بنص القرآن لقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء - (٨٨ / ٢١)] وقيل لذلك أن أعظم الدعاء ما ورد في القرآن الكريم وأعظم ما ورد في القرآن ما أعقبته الإجابة فتأمل .

قلنا : الفرق من وجوه :

الأول : أن يونس عليه السلام كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة ، فسبق المعرفة اعانة على قبولها منه . وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر ، وذلك لأن الذي تقدم له (هو) النداء الى نفسه كما قال تعالى : ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾^(١) . وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله . قال تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾^(٢) . وأيضاً قال : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾^(٣) . وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات ، يحفظه الله في الفلوات .

الثاني : أن يونس عليه السلام انما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ . فكان في الحضور والشهود . وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة ، فقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل ﴾ . فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير^(٤) .

الثالث : أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني اسرائيل ، فقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل ﴾^(٥) . وأما يونس عليه السلام فإنه انما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات^(٦) . ثم قال بعده : ﴿ سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾^(٧) .

(١) النازعات (٢٣/٧٩ ، ٢٤)

(٢) القلم (٤٨/٦٨)

(٣) الصافات (١٤٣/٣٧ ، ١٤٤)

(٤) والضمير الذي استعمله كل منهما يدل على حاله واستعمال يونس له دليل على اليقين وفرعون استعمله ليذل على فقدان اليقين .

(٥) يونس (٩٠/١٠)

(٦) الإنكسار للشعور بإثم التقصير .

(٧) الأنبياء (٨٧/٢١)

فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة ، فلما كانت هذه مسبقة بالعجز والانكسار ملحقة بهما لا جرم صارت مقبولة ، لقوله تعالى : ﴿ أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾^(١) .

الرابع : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق ، بدليل قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ﴾^(٢) . وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية ، بدليل قوله بعده : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الفضيلة الثانية لهذه الكلمة

أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ، ويستحيل أن يوافقك [الله] في شيء منها ، ثم أمرك أن تقول : لا إله إلا الله ، ثم إن الله يوافقك فيها فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٣) .

والمقصود من التكرير^(٤) وجهان : أن يكون العبد مواظباً على تكريرها طول عمره . الثاني : كأنه قال : عبدي ، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها ، فاجعلها أنت أيضاً أول عمرك وآخره ، حتى تفوز بالنجاة والسلامة .

وهنا نكت :

(١) النمل (٢٧ / ٦٢)

(٢) يونس (١٠ / ٩٠)

(٣) آل عمران (٣ / ١٨)

(٤) أي تكرير (لا إله إلا هو) في الآية نفسها .

الأولى : انه تعالى جعلك ثالث نفسه^(١) في هذه الآية ، وكفاك هذا فخراً .

الثانية : روي أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك ، فنظر اليه يوسف عليه السلام ، وكان [الرجل] في غاية الدناءة ، فسأل جبريل عن السبب ، فقال : إن له عليك حق الشهادة : انه هو الذي شهد ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾^(٢) الآية . والاشارة : ان من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا ، فمن شهد الله بالتوحيد والجلال كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى ؟ .

والثالثة : في الحديث : « ان الله ملائكة يؤمنون عند تأمين الإمام ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »^(٣) . والاشارة : ان من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة صار مغفوراً له ، فمن وافقت شهادته بوحدانية الله شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفوراً له .

الرابعة : انه سبحانه سماك وقت التخليق مختاراً ، فقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾^(٤) أي مختاراً له ، لا إنه أثبت الخيار للعبد ، وفي موضع الذنب [سماه] جاهلاً فقال : ﴿ انه كان ظلوماً جهولاً ﴾^(٥) . وفي موضع الرزق [سماه] دابة [فقال] : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾^(٦) . وفي وقت الطاعة [سماه] أجيراً : ﴿ فيوفيه أجورهم ﴾^(٧) .

(١) والثالثة هم الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، وأولوا العلم .

(٢) يوسف (٢٦ / ١٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان طفلاً في المهد أنطقه الله ، وكان

ابن خالها . راجع الطبري (١٩٣ / ١٢) لكن صاحب البحر المحيط يقول : وكونه من أهلها

أوجب للحجة عليها وأنفى للتهمة . البحر (٢٩٧ / ٥) .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني عن واثلة بن الأسقع وغيره .

(٤) القصص (٦٨ / ٢٨)

(٥) الأحزاب (٧٢ / ٣٣)

(٦) هود (٦ / ١١)

(٧) النساء (١٧٣ / ٤)

وعند الشهادة عالماً : ﴿ والملائكة وأولوا العلم ﴾^(١) . ثم ان العلم أفضل الدرجات : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾^(٢) .

والغرض منه : التنبيه على الدرجات ، فأنت من حيث أفي خلقتك مختاري ، فلك درجة موسى حيث قلت : ﴿ وأنا اخترتك ﴾^(٣) . وحين اذنبت فأنت جاهل ، والجهل عذر من بعض الوجوه ، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة ، لأنه هو الذي تكفل برزقك ، فما هو مقدور لك يصل اليك ، وما ليس مقدوراً لك لا يصل إليك ، فكان الطلب عديم الفائدة^(٤) ، فكان [هذا] شبيه أفعال البهائم ، وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير . وتلك كلها درجات نازلة ، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد فأنت من العلماء الخائضين في لجة بحر التوحيد ، وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف ، كما قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾^(٥) .

الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾^(٦) . وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد ، وأما العصا فقلوه : ﴿ تلك ﴾ . وأما اليد فقلوه : ﴿ بيمينك ﴾ . فصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيتهم ، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾^(٧) . وكلمة لا إله إلا الله ، وهي صفة وحدانيته وفردانيته في ذاته وجلاله وعزته ، ألا تستقل بافناء آثار العصيان عن قلب العبد ، وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية ؟

(١) آل عمران (١٨/٣)

(٢) النساء (١١٣/٤)

(٣) طه (١٢/٢٠)

(٤) لا بد أن يتوافق شغل القلب بالخالق مع نشاط الحركة في طلب الرزق .

(٥) المجادلة (١١/٥٨)

(٦) طه (١٧/٢٠)

(٧) النمل (١٢/٢٧)

السادسة : عصا موسى أخرجت من الجنة ، فبطل السحر عندها ،
فهذه الكلمة انما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ، ونرجو أن تبطل
الذنوب عندها .

السابعة : حكى عن الحجاج انه أمر بضرب عنق رجل ، فقال : لا
تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي . فأجابه اليه ، فقال الرجل : بحرمة
صحبتي معك في هذه الساعة لا تقتلني . فعفا عنه ، فههنا وقعت للمؤمنين
صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة ، فنرجو أن يغفر الله له .

الثامنة : وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة ابراهيم ، وهو قوله : ﴿ مله
أبيكم ابراهيم ﴾^(١) . وأمومة أزواج النبي ﷺ ﴿ وازواجه أمهاتهم ﴾^(٢) .
وأخوة المؤمنين ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾^(٣) . واستغفار الأنبياء : ﴿ واستغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾^(٤) . واستغفار الملائكة ﴿ ويستغفرون للذين
آمَنوا ﴾^(٥) . وشفاعة مثل محمد ﷺ « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »^(٦) .
ومشاركة الله تعالى في الاسم ﴿ المؤمن ﴾ . فذنبه ما أزال عنه هذه
التشريفات ، افترى انه يخرج عن رحمة ارحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين .

التاسعة : يحكي انه عرض على نصر بن أحمد عسكره ، وكان يسأل عن
اسماء الرجال فيجيئونه ، فسأل واحداً عن اسمه فسكت ، لأنه كان سميّه ،
ففطن لذلك ، فأعطاه خلعة ، فاذا كان حال سمي الملك ذلك ، فكيف من
كان سمي ربه تعالى ﴿ المؤمن ﴾ .

-
- (١) الحج (٧٨ / ٢٢)
 - (٢) الأحزاب (٦ / ٣٣)
 - (٣) الحجرات (١٠ / ٤٩)
 - (٤) محمد (١٩ / ٤٧)
 - (٥) غافر (٧ / ٤٠)
 - (٦) الحديث أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال الترمذي حسن غريب ،
وقال البيهقي إسناده صحيح . راجع كشف الخفاء للعجلوني (١٤ / ٢) .

الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة

ان كل طاعة فإنه يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾^(١) . أي : عمل الصالح ترفعه الملائكة . هكذا قال بعضهم^(٢)

الفضيلة الرابعة

قال بعضهم : الحكمة في قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت ﴾^(٣) . ان يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله ، فيمنح في ذلك النور نور الشمس والقمر^(٤) ، لأن تلك الأنوار مجازية ، ونور لا إله إلا الله نور ذاتي واجب الوجود لذاته ، والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة ، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا النور ، بل يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود ، كما قال : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾^(٥) .

الفضيلة الخامسة

إن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج ، فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم الغيب ، أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على انهم مواظبون على الحمد ،

(١) فاطر (١٠/٣٥)

(٢) راجع الدر المفقود (٩٥/٣)

(٣) التكوير (٢٠ ، ١/٨١) .

(٤) ويبطل كل شيء ويبقى وجه الله الكريم وحده حيث يبقى ولا شيء غيره .

(٥) القصص (٨٨/٢٨) .

والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر والتوحيد . وإنما قلنا : انهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (١) . ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢) . ﴿ لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ (٣) . فثبت انهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر ، فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد .

الفضيلة السادسة

ما روي في الآثار انه قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض » (٤) . قال المحققون : السبب في ذلك انه لما قال هذه الكلمة ، فإنه قد رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضداً أو ندأً أو شريكاً ، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم .

الفضيلة السابعة

قال السدي في قوله تعالى : ﴿ جمعسق ﴾ : الحاء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله ، والسين سنه وسره ، والقاف قدرته وقهره ، يقول : بحلمي وبحكمي وملكي ،

(١) الزمر (٧٤/٣٩)

(٢) يونس (١٠/١٠)

(٣) القصص (٧٠/٢٨)

(٤) ولم نعلم على هذا القول أدلة ثابتة فربما يكون من أقوال أحد الصوفية .

ويعجدي وعظمتي ، وعززي وعلمي وعدلي ، وسنائي وسري ، وقدرتي
وقهري ، لا أعذب في النار أبداً من قال : لا إله إلا الله^(١) .

الفضيلة الثامنة

قيل : إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا
إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة ، وصدقاتهم يشوبها
الحرام والشبهة ، فلا خلاص في شيء منها ، أما كلمة لا إله إلا الله فهي ذكر
الله ، والمؤمن لا يذكر الله إلا من صميم القلب .

الفضيلة التاسعة

الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة :

فالأول : قوله عليه السلام : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل
الدعاء الحمد لله »^(٢)

والثاني : عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال : « ليس
على أهل لا إله إلا الله وحشة الموت ، ولا وحشة عند النشر ، وكأنني أنظر إلى
أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون : الحمد لله الذي

(١) وقد روى البزاز عن أبي سعيد : « من قال لا إله إلا الله دخل مخلصاً الجنة » وصححه السيوطي

راجع الجامع الصغير للسيوطي . (١٧٧/٢) ط . المطبعة العلمية « وإخلاص كلمة التوحيد أن

تجوز عن محارم الله . كشف الخفا (٣٧٢/٢)

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن ثوبان وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٩/١) ط .

العلمية . قال ابن حجر في الفتاوى الحديثة : وروى الديلمي « أفضل العمل لا إله إلا الله وأفضل

الدعاء استغفر الله » . كشف الخفا (١٧٢/١)

أذهب عنا الحزن»^(١)

الثالث : يروى أن المؤمن لما انصرف عن مرو يريد العراق ، واجتاز نيسابور ، وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا ، فقام إليه قوم من المشايخ ، وقالوا : نسألك بحق قرابتك مع رسول الله ﷺ أن تحدثنا حديثاً ينفعنا . فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال : « لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي »^(٢) .

الرابع : روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « يفتح الله أبواب الجنة ، وينادي منادٍ من تحت العرش : أيتها الجنة ، وكل ما فيك من النعم ، لمن أنت ؟ فتنادي الجنة ومن فيها : نحن لأهل لا إله إلا الله ، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله ، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله ، ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله »^(٣) .

الخامس : قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله »^(٤) . قال بعض العلماء : أنه تعالى جعل العذاب عذابين : أحدهما السيف من يد المسلمين ، والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى ، والنار في غلاف لا يرى ، فقال لرسوله : من أخرج لسانه من غلاف المريء وهو الفم ، فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى ، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر ، فقال : لا إله

(١) فاطر (٣٤/٣٥) وأهل الجنة يقولون هذا عند دخولهم الجنة وقال المفسرون عبر عنها بالماضي لتحقيق وقوعه والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من المرض والفقر والهموم . راجع الطبري (٩١/٢٢) وأبو السعود (٢٤٥/٤)

(٢) أخرجه الحكيم في النوادر (ص ٢٠٦)

(٣) أين هذا الحديث من الواقع أو الإسناد العلمي ، لم نعثر على ما يتصل به سنداً وممتناً فيما بين أيدينا من مصادر قلعله ينفع في فضائل الأعمال فإن معناه صحيح . والله أعلم .

(٤) « وحسابهم على الله » لما أن كان حكماً على الظاهر ، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى السرائر ويعلم ما تخفي الصدور .

إلا الله ، أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة ، حتى يكون واحد بواحد ، ولا ظلم ولا جور .

السادس : عن أنس قال : قال عليه السلام : « من قرأ عند منامه : ﴿ شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ان الذين عند الله الإسلام ﴾ ^(١) خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » ^(٢) .

السابع : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، و﴿ شهد الله ﴾ - إلى قوله - ﴿ ان الدين عند الله الإسلام ﴾ ، و﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ - إلى قوله - ﴿ بغير حساب ﴾ ^(٣) . معلقات ما بينهن وبين الله حجاب ، يقول الله عز وجل : بي حلفت ، لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه واسكنته حظيرة القدس ، ولأنظرن إليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة ، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأحفظه من كل عدو وحاسد » ^(٤) .

الثامن : قال أبو سعيد الخدري : قال عليه السلام : « ما من عبد يقول أربع مرات : اللهم اني اشهدك وكفى بك شهيداً ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ، اني اشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الا كتب الله له صكاً لعتق من النار » ^(٥)

(١) آل عمران (١٨/٣ ، ١٩) راجع في تفسير الآية القرطبي (٤١/٤) .

(٢) أخرجه الدارمي .

(٣) آل عمران (٢٦/٣ ، ٢٧) راجع تفسير الإمام الطبري (٣٠٩/٥) .

(٤) راجع العلل المتناهية ، ص ١٧٥ .

(٥) أخرجه الدارمي والترمذي عن أبي سعيد .

التاسع : عن ابن عمر قال : قال ﷺ : « يجاء برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، فيقال له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقال : ألك عذر ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول الله تعالى : إن لك عندنا وديعة ، وأنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : اشهد ألا الله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يا رب ، مع هذه البطاقة مع السجلات . فيقول الله : لا ظلم اليوم ، فتوضع البطاقة في كفة ، والسجلات في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء »^(١)

العاشر : عن أنس قال : قال عليه السلام : « ما زلت أشفع الى ربي فيشفعني ، حتى أقول : يا رب شفعي فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول الله تعالى : هذه ليست لك يا محمد ، إنما هذه لي ، وعزتي ورحمتي وحلمي ، لا أدع في النار أحداً قال : لا إله إلا الله »^(٢) .

واعلم ان اهل العرفان ذكروا في تفسير : « لا إله إلا الله » وجوهاً :

الأول : قال ابن عباس : لا إله إلا الله : لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله .

الثاني : لا إله يرجى فضله ، ويخاف عدله ، ويؤمن جوده ، ويؤكل رزقه ، ويسأل عفوه ، ويترك أمره ، ويرتكب نهيه ، ولا يحرم فضله إلا الله الذي هورب العالمين ، وغفار المذنبين ، وملجأ التائبين المغمومين ، وغاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين .

الثالث : قول العبد : لا إله إلا الله ، اشارة الى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد ، الى الملك المجيد ، فإذا قال : لا إله إلا الله ، فالمعنى : لا

(١) أخرجه ابو داود .

(٢) ذكره السيوطي في البدور السافرة وابن القيم في صادي الأرواح .

إله له الآلاء والنعماء ، والقدرة والبقاء ، والعظمة والثناء ، والعزة والثناء ،
والسخط والرضا ، إلا الله الذي هو رب العالمين ، وخالق الأولين والآخرين ،
وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرجبة ، ولا إله للرهبة ، إلا الله الذي هو كاشف
الكربة .

وعن عمران بن حصين قال : قال عليه السلام لأبي حصين : « كم
تعبد اليوم من إله ؟ » قال : أعبد تسعة ، أو سبعة في الأرض وواحد في
السماء . قال : « أيهم تعبد برغبتك ورهبتك ؟ » قال : الذي في السماء .
قال : « فيكيفك إله السماء » . ثم قال : « يا حصين . لو أسلمت علمتك
كلمتين تنفعانك » . فأسلم حصين ، ثم قال يا رسول الله : علمني هاتين
الكلمتين ، فقال : « قل : اللهم الهمني رشدي ، وأغفر لي ، وأعصمني من
شر نفسي »^(١) .

الخامس : قيل في قوله : ﴿ شهد الله ﴾^(٢) : يشهد الله تعالى في عوالم
القدس ، وحظائر الجلال ، وسرادقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه
الشهادة في السموات ، وأولوا العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين .

وقال جعفر الصادق وقد سأله عن هذه الآية : « ان الله شهد لنفسه
بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية ، ثم خلق الخلق ، فشغلهم بعبادة هذه
الكلمة^(٣) ، وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق ، وشهادتهم له رسم ، فكيف
يستوي الرسم مع الحق ، ومن أين للتراب طاقة على تجلي نور رب الأرباب .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما
نزل قوله تعالى : ﴿ شهد الله ﴾ خرت الأصنام سجداً حول الكعبة^(٤) .

(١) أخرج الحديث أبو داود وابن ماجه والطبراني .

(٢) آل عمران (١٨/٣) . راجع تفسير القرطبي للآية الشريفة (٤٠/٤ ، ٤١)

(٣) لأن النطق بها ذكر وعبادة ترفع الدرجات .

(٤) راجع الدر المنثور (١٣٥/١)

الفصل الثالث

في

أسماء كلمة التوحيد

الأول : كلمة التوحيد

وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق . وفائدة قولنا : على الإطلاق ، انه تعالى لما قال : ﴿ وآلهكم إله واحد ﴾^(١) . أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول : إن إلهنا واحد ، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا . فאלله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾^(١) . وذلك لأن قولنا : لا رجل في الدار ، يقتضي نفي الماهية ، ومتى انتفت الماهية ، انتفى جميع أفرادها ، إذ لو حصل فرد من افراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية ، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية ، فثبت أن قولنا : لا رجل في الدار ، يفيد النفي العام الشامل فإذا قيل بعد ذلك : الا زيداً ، أفاد التوحيد العام الكامل .

ثم أعلم ان لهذا ثمرتين :

الأولى : أن جوهر الانسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً ، قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾^(٢) . فإذا كان الأصل فيه كونه مكرماً كان كونه مطهراً على وفق الأصل ، وكونه منجساً على خلاف الأصل^(٣) ثم أنا رأينا الانسان متى أشرك صار نجساً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾^(٤) . فإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع ذلك على خلاف

(١) البقرة (٢/١٦٣)

(٢) الإسراء (١٧/٧٠) راجع تفسير الإمام الطبري (١٥/١٢٥)

(٣) فالأصل المفطور عليه الإنسان هو الطهارة والنقاء ولكن الخبائث تكتسب من أحوال الدنيا .

(٤) التوبة (٩/٢٨) والمشركون نجس لخبث باطنهم ، قال ابن عباس أعيانهم نجسة كالكلاب

والخنازير وقال الحسن من صافح مشركاً فليتوضأ . القرطبي (٨/١٠٣)

الأصل ، فكونه موحداً بأن يقتضي كونه طاهراً أولاً ، لأنه على وفق الأصل . وإذا ثبت أن الموحّد كامل في كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله تعالى ، لقوله : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾^(١) .

الثانية : أن الشرك سبب لخراب العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . إن دعوا للرحمن ولداً ﴾^(٢) . وإذا كان الشرك سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم ، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم ، فإذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم ، فأولى أن تكون سبباً لعمارة القلب الذي هو محل الوجدانية ، ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوجدانية ، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد .

الاسم الثاني

أن هذه الكلمة تسمى « كلمة الاخلاص » . وكان معروف الكرخي^(٣) يقول : « يا نفسي ، تخلصي » . ثم التحقيق فيه : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه ، وخلص لله ، سمي خالصاً ، وسمي الفعل اخلاصاً .

ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض ، فمتى كان الغرض في الفعل واحداً ، سمي هذا الفعل اخلاصاً . فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب الى الله فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما ان

(١) النور (٢٤/٢٦) راجع صفوة التفسير للصابوني (٩٣٠/١٨)

(٢) مريم (٩٠/١٩ ، ٩١)

(٣) كان معروف الكرخي عابداً ورعاً زاهداً وكان مستجاب الدعوة توفي سنة ٢٩٥ هـ .

الالحاد هو الميل ، ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق .

فإذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط ، وهو الاخلاص ، أو شيطانياً فقط ، وهو الرياء^(١) ، أو مركباً منهما ، وهو على ثلاثة أقسام ، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية ، أو يكون الروحاني أقوى ، أو يكون النفساني أقوى .

القسم الأول : وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط ، وهذا لا يتصور إلا من محب الله ، مستغرق الهم به ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر ، حتى لا يحب الأكل والشرب ، بل تكون رغبته فيه كـرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجبلة . فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله . فمثل هذا الشخص اذا أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته ، ولو نام مثلاً لتستريح نفسه فتقوى على عبادة الله كان نومه أيضاً عبادة .

أما القسم الثاني : وهو أن يكون الباعث نفسانياً ، فهذا لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا ، مستغرق الهم بهما ، بحيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر . وكما انه في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه ، اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفحة^(٢) ، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا ، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة^(٣) ، فلا يسلم له شيء من عبادته ، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب .

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول :

أما الذي فيه الباعثان [متساويين] ، فالأظهر انهما يتعارضان ، ويتناقضان ، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه ، وأما الذي يكون أحد

(١) وبين الاخلاص والرياء شعرة يحذرهما العقل الحصيف .

(٢) كذا وردت في بعض النسخ والأصح (الصفة) وهي تحريف والقصد صفة الاخلاص .

(٣) ويقصد بها صفة الرياء .

الطرفين فيه أغلب ، فينحط منه ما يساوي الطرف الآخر ، وتبقى الزيادة موجبة أثرها السلائق بها . وذلك هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾^(١) . وقوله : ﴿ ان الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾^(٢)

وتمام التحقيق فيه : ان الأعمال لها تأثيرات في القلب ، فإذا خلا المؤثر عن المعارض خلا الأثر عن المضعف ، وإذا كان المؤثر مقروناً بالمعارض ، فإن تساويهما تساقطا ، وإن كان أحدهما أغلب فلا بد وأن يحصل في الزائد بمقدار الناقص ، فيحصل التساوي بينهما ، أو يحصل التساقط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض ، فيؤثر لا محالة أثراً ما ، وكما لا يخلو مثقال ذرة من الطعام أو الشراب عن أثر في الجسد ، فكذلك لا يخلو مثقال ذرة من الخير والشر عن أثر في التقريب من باب الله تعالى أو التعبير منه . فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يباعد شبراً فقد عاد الى ما كان عليه ، لا له ولا عليه . وإذا كان أحد الفعلين مما يقربه شبرين والفعل الثاني مما يباعد شبراً واحداً اقترب لا محالة شبراً الى الله^(٣) .

واحتمج من زعم ان المشوب لا ثواب عليه بوجهين :

الحجة الأولى : ما روي أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن يصنع المعروف ثم يحب أن يحمد عليه ويؤجر ، فلم يدر ما يقول حتى نزل : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾^(٤) .

الحجة الثانية : ما روي أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال

(١) الزلزلة (٧/٩٩ ، ٨)

(٢) النساء (٤٠/٤)

(٣) راجع آداب النفوس .

(٤) الكهف (١١٠/١٨) أي ليكن عمله خالصاً لوجه الله فلا يراعي به أحداً .

لمن أشرك في عمله أحداً : « خذ أجرك ممن عملت له »^(١) . وعن النبي ﷺ أن الله يقول : « أنا أغني الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، تركت نصيبه لشريكي »^(٢)

والجواب عن الحجة الأولى : أنها محمولة على ما اذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط .

والجواب عن الثانية : ان لفظ الشرك محمول على تساوي الداعين ، وقد بينا انه عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخر .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : كلمة لا إله إلا الله ، مسماة بكلمة الاخلاص ، وذلك أن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب ، وهو كون الإنسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى ، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يؤتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبه وعبوديته فهذه المعرفة ان طلبت ظلت لوجه الله تعالى ، لا لغرض آخر البتة ، بخلاف سائر الطاعات البدنية ، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله ، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا ، وطلب المدح والثناء ، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الاخلاص .

الاسم الثاني لهذه الكلمة: « كلمة الإحسان »

ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول . أما القرآن فأيات :

أحداها قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾^(٣) . قال

(١) راجع أسباب النزول للواحدي (ص ٧٨) (٢) أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني .

(٣) الرحمن (٦٠/٥٥) أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة قال ابو السعود : أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب . راجع أبو السعود (١٢٧/٥)

المفسرون المراد من قوله : ﴿ هل جزاء الإحسان ﴾ : هل جزاء الإيمان^(١) .
 والتحقيق فيه : أن عليك عهد العبودية ، وعلى كرمه عهد الربوبية ، كما قال
 تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾^(٢) . وعهد عبوديتك : أن تكون
 عبداً له لا لغيره . ثم كمال هذه الدرجة : أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو
 عبد الله ، كما قال : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن
 عبداً ﴾^(٣) . ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه . وقوله : لا
 إله إلا الله ، يدل على اعترافه بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه . فثبت أن
 قول : لا إله إلا الله ، إحسان من العبد ، فقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا
 الإحسان ﴾ أي : هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في
 حماية لا إله إلا الله .

والثانية قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾^(٤) . والمراد من
 قوله : ﴿ للذين أحسنوا ﴾ هو : قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير^(٥) .
 وبديل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة .

وثالثها قوله : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾^(٦) .
 واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان^(٧) ، وما ذاك إلا لاشتمال
 الأذان على كلمة لا إله إلا الله ، وأيضاً فإنه تعالى قال في صفة الكافرين :
 ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾^(٨) ، فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٣/١٧)

(٢) البقرة (٤٠/٢)

(٣) مريم (٩٣/١٩)

(٤) يونس (٢٦/١٠)

(٥) راجع تفسير القرطبي (١١٦/١٥)

(٦) فصلت (٣٣ / ٤١)

(٧) راجع كنز العمال (٢٦٦/٤)

(٨) العنكبوت (٦٨/٢٩) راجع الجامع لأحكام القرآن (٣٦٣/١٣)

الكفر ، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد ، ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾^(١) . وقال في آخر السورة : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾^(٢)

ثم انه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾^(٣) ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً ، قال تعالى : ﴿ والذين كفروا أوليسأؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾^(٤) .

ورابعها قوله تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾^(٥) . ولا شك أن أحسن القول لا إله إلا الله .

وخامسها قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾^(٦) . قيل : العدل : الاعراض عما سوى الله تعالى ، والاحسان : الإقبال على الله تعالى .

وسادسها قوله تعالى : ﴿ إن أحستتم أحستتم لأنفسكم ﴾^(٧) . ولا شك أن الإحسان قول : لا إله إلا الله .

وأما الخبر فيما روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » : للذين قالوا : لا إله إلا الله الحسنى وهي الجنة ، والزيادة هي النظر الى وجهه الكريم^(٨) .

وأما المعقول فهو : أنه كلما كان الفعل حسناً كان فاعله أكثر إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله ، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً .

(١) المؤمنون (١ / ٢٣)	(٥) الزمر (١٨ / ٣٩)
(٢) المؤمنون (١١٧ / ٢٣)	(٦) النحل (٩٠ / ١٦)
(٣) الفرقان (٢٤ / ٢٥)	(٧) الإسراء (٧ / ١٧)
(٤) البقرة (٥٧ / ٢)	(٨) راجع الدر المنثور (١٧ / ٣)

الاسم الرابع : « دعوة الحق »

قال الله تعالى في سورة الرعد : ﴿ له دعوة الحق ﴾^(١) . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله^(٢) . واعلم أن قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه : له هذه الدعوة لا لغيره ، كما أن قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾^(٣) معناه : لكم دينكم لا لغيركم ، ولي ديني ، وتحقيق الكلام في إثبات هذا الحصر : ان الحق نقيض الباطل ، فالحق هو الموجود والباطل هو المعدوم ، فلما كان الحق سبحانه وتعالى حقاً في ذاته وبذاته وصفاته ، وكان ممتنع التغير في حقيقته ، كانت معرفته هي المعرفة الحققة ، وذكره هو الذكر الحق ، والدعوة اليه هي الدعوة الحققة .

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته ، ولا يكون حقاً لذاته ، فلا تكون معرفته واجبة التحقيق ، ولا ذكره ولا الدعوة اليه . وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ .

واعلم ان دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق الى الحق ، وتارة تكون من الخلق للخلق الى الحق .

أما الأول فنقول : إما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى هو الذي دعا القلوب الى حضرتة ، فلولا دعوته الى تلك الحضرة ، وتوفيقه في ذلك [ما كان] الوصول ، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول الى حضرة الله تعالى . وأيضاً فلأن مبادئ^(٤) الحركات ، وأوائل المحدثات تنتهي الى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾^(٥) . وأما أن تلك الدعوة للخلق فللقوله تعالى :

(١) الرعد (١٣/١٤) .

(٢) راجع الدر المنثور (٣/٢٠٠) .

(٣) الكافرون (١٠٩ / ٢) .

(٤) المبادئ والحركات في [ج]

(٥) الروم (٣٠ / ٤) .

﴿لن الملك اليوم﴾^(١) . وأما الانتهاء الى الحق فلقوله تعالى : ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾^(٢) .

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله تعالى : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾^(٣) . ولقوله : ﴿إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾^(٤) .

الاسم الخامس : « كلمة العدل »

قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾^(٥) . قال عثمان بن مظعون الجمحي : ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياة من رسول الله ﷺ ، وذلك أنه كان كثيراً ما يدعوني إلى الإسلام ، فأستحييت منه وأسلمت ، ولكن الإسلام ما كان مستقراً في قلبي ، ثم انه عليه السلام دعاني يوماً فجلست إليه ، فبينما هو يحدثني أذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء ، فإذا هو جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ . العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والإحسان القيام بالعبودية ، قال عثمان : فوقع الإسلام في قلبي^(٦) .

وقال ابن عباس : العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والإحسان : الإخلاص فيه^(٧) .

(١) غافر (١٦ / ٤٠)

(٢) النجم (٥٣ / ٤٢)

(٣) فصلت (٤١ / ٣٣)

(٤) آل عمران (١٩٣ / ٣)

(٥) النحل (٩٠ / ١٦)

(٦) راجع الدر المنثور (٧٩ / ٣)

(٧) راجع تفسير القرطبي (٨٨ / ١٠)

وقال آخرون : العدل مع الناس بالرعاية ، والاحسان مع نفسك بالطاعة^(١) .

قال تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ ﴾^(٢) .

وقال آخرون : العدل مع الأعضاء ، والاحسان مع القلب^(٣) .

وقال آخرون : العدل : رؤية الافتقار الى الحق ، والاحسان : مشاهدة الحق الى كل شيء في الخلق^(٤) .

واعلم ان السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه :

الأول : ان العدل في كل شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله ، وكمال حلوله . ومن المعلوم ان كمال القوى الحساسة في ادراك المحسوسات ، وكمال القوى الشهوانية في طلب الاشياء النافعة الجسمانية ، وكمال القوى الغضبية في دفع الاشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها ، وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق ، وأشباه المعقولات كما هي ، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها : معرفة جلال الله وقدره وعظمته وعزته ، فكان غاية المعقول ، واعتدال الأرواح البشرية ، والقوى العقلية : كونها مقبلة على هذه الحال ، مستغرقة فيها . فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله « كلمة العدل » .

السبب الثاني : ان هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله متوسطة بين الافراط الذي هو التشبيه ، وبين التفريط الذي هو التعطيل ،

(١) المرجع السابق .

(٢) الإسراء (٧/١٧)

(٣) الدر المنثور (٩٥/٢) .

راجع السابق .

فمن بالغ في الاثبات وقع في التشبيه^(١) ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل^(٢) والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

السبب الثالث : من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، وعدل على الطريقة التي ألفها بحثه وخياله ، وقع في الضلال . ومن توغل في البحث ، وأراد الوصول الى كنه العظمة ، وهوية الجلال ، تحير وتردد ، بل عمي ، فإن نور جلال الإلهية مما يعمي أحداق العقول البشرية ، فصار هذان الطرفان مذمومين .

والطريق المستقيم هو : أن يخوض الانسان البحر المعتدل في البحث ، ويترك التعمق ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : « تفكروا في الخلق ، ولا تفكروا في الخالق »^(٣) .

فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالعدل في بحر التوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾^(٤) فمن يعجز عن العدل في حق النساء يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد ؟

فالجواب : أنه تعالى أظهر عجزك في الضعيف ، وأقدرك على الشريف ، لتعرف ان الكل منه سبحانه وتعالى^(٥)

(١) أي تشبيه الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته بما له وبما فيهم من صفات كالوجه واليد والعين وغيره .
(٢) التعطيل هو نفي هذه الصفات المتشابهات يوقع في تعطيل أوصاف وصف الله بها نفسه في كتابه وسنة رسوله ﷺ .

(٣) أخرجه أبو داود عن ابن عمر .

(٤) النساء (١٢٩/٤)

(٥) ولما كان العقل هو مناط العدل وتعويله عليه ، فإن العدل صعب وجوده إزاء الشهوة بالنساء ، إذ أنهن يأخذن بالعقل والحصافة فيضطرب العدل من جراء ذلك .

الاسم السادس: « الطيب [من القول] »

قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾^(١) .
وأي كلمة توجد أظهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى : ﴿ إنما
المشركون نجس ﴾^(٢) . ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة نزول
بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة .

وتحقيق القول فيه : ان الطيب هو اللذيذ . واللذة هي : ادراك
الملائم . وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة : ادراك المحسوسات^(٣) والملائم
للقوى الشهوانية : جلب النافع الجسماني ، وللقوة الغضبية دفع المنافي
الجسماني^(٤) ، وأما الملائم للقوة العقلية فهو ادراك جلال الله وقدرته وعظمته
وعزته .

إذا عرفت هذا فنقول : ادراك القوة العاقلة أقوى من ادراك القوة
الحساسة ، وسيأتي شرح هذا فيما بعد ان شاء الله تعالى ، وأما مدركات
القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، ومدرك
القوة العاقلة هو : ذات الله تعالى^(٥) وعظمته وجلاله . وظاهر انه كلما كان
الادراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب الادراك أشرف
وأعلا .

فعلى هذا نسبة اللذة العقلية الى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة
الادراك العقلي الى الادراك الحسي ، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في
الشرف والتعالي الى الأعراض القائمة بالأجسام^(٦) . وكما أنه لا نهاية للنسبة

(١) الحج (٢٢ / ٢٤)

(٢) التوبة (٩ / ٢٨)

(٣) المحسوسات في (ج)

(٤) فرج (دفع النافع الجسماني) وهو خطأ .

(٥) ليس في إمكان البشر الوصول الى ذات الله تعالى ، ولكن الممكن هو ما يتصل ويتعلق بها
فقط .

(٦) وهناك فرق كبير وبون بعيد بين شرف اللذة ، وشدة أخذها وقوة نزولها .

الحاصلة بين هذين الإدراكين وبين هذين المدركين ، فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب ادراك جلال الله وبين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات^(١) .

وإذا عرفت هذا ظهر ان الطيب المطلق هو : معرفة ألا إله إلا الله ، وذكر لا إله إلا الله ، والاستغراق في انوار جلال لا إله إلا الله ، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ وهدوا الى الطيب من القول ﴾^(٢) . والمراد منه : كلمة لا إله إلا الله .

والألف واللام في لفظة « الطيب » للاستغراق - كأنه تعالى ينه الى انه لا لذيق ولا طيب إلا هذا ، وذلك هو الحق ، لأننا بينا أن أطيّب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض ، فلذلك بين بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك .

الاسم السابع : « الكلمة الطيبة »

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾^(٣) . اختلفوا في انه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه :

الأول : انها طيبة بمعنى انها طاهرة عن التشبيه والتعطيل ، ولكنها^(٤) . متوسطة بينهما ، مباينة لكل واحدة منهما . كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنها ، مصفى عن شائبة كل واحد منهما .

الثاني : أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب

(١) الخواص [في الأصلين] وما أوردناه أصح .

(٢) الحج (٢٢ / ٢٤)

(٣) ابراهيم (١٤ / ٢٤)

(٤) ولأنها (ج)

المسكن في العقبى ، أما طيب اسمه فلقوله تعالى : ﴿ والطيبات للطيبين ﴾^(١) . وأراد به المؤمنين والمؤمنات^(٢) . وأما طيب المسكن فلقوله : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾^(٣) .

الثالث : أنها طيبة بمعنى انها مقبولة ، يقبلها الله تعالى ، وتصعد اليه ، كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾^(٤) . قالوا : والسبب في أن هذه الكلمة تصعد الى الله تعالى بذاتها : أنها طيبة . وقال عليه السلام « ان الله طيب لا يقبل إلا الطيب »^(٥) .

وتمام التحقيق فيه : أن العقل والروح عاشقان على التحلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان ، والمعرفة مجذوبة الى المعروف ، وإذا تصاعد العرفان الى المعروف - والعارف ملازم للعرفان - انجذب العارف الى المعروف ، وصعد اليه . فذلك هو المراد من قوله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ .

فإن قيل : قال المفسرون : الشجرة الطيبة هي النخلة^(٦) ، فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة^(٧) . ؟

فالجواب عنه من وجوه :

الأول : أن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان ، بل في البعض دون البعض ، فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ، ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب .

(١) النور (٢٤ / ٢٦)

(٢) راجع الدر المنثور (٢ / ٢٥٠)

(٣) التوبة (٩ / ٧٢)

(٤) فاطر (٣٥ / ١٠)

(٥) أخرجه ابو داود

(٦) راجع تفسير القرطبي (٩ / ١٥)

(٧) الكلمة الطيبة (على هامش ج) وذلك من نسخة أخرى .

الثاني : إن النخلة أطول الأشجار ، وكذا كلمة التوحيد أعلا الكلمات .

الثالث : ان الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض ، وفروعها في السماء ، فكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب ، وهو المعرفة ، وفروعها ثابت في السماء ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾^(١)

الرابع : ان النخلة تحمل كل سنة مرتين ، فكذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب [المؤمن] لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة . ومرة أخرى في الآخرة ، وهي الجنة الباقية ، والنعمة الدائمة .

الخامس : ان النخلة وان حصل في وسط ثمراتها نواة لا خير فيها ولا منفعة ، فإن قيمة تلك الثمرة^(٢) لا تنقص بسبب تلك النواة ، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شيء من المعاصي ، إلا أن قيمتها لا تنقص بسبب ذلك : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم ﴾^(٣) .

السادس : ان النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك ، والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا في أعلاها ، فكذلك الدين ، أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك ، وفي أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة ، التي هي الجنة والمعرفة^(٤) .

الاسم الثامن : « القول الثابت »

قال الله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا

(١) فاطر (١٠/٣٥)

(٢) قيمة تلك الشجرة (٥)

(٣) الزمر (٥٣/٣٩)

(٤) ومن حيث ينتفع الإنسان بثمرة النخلة فإنه أيضاً ينتفع بالتوحيد فالنخلة تنفع البدن بغذائها والتوحيد ينفع الروح والنفس ، وهذه وتلك كلاهما ينتفع بهما الإنسان في كل مكان وزمان .

وفي الآخرة ﴿١﴾ . وعلة التسمية من وجوه :

الأول : ان المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ، ممتنع العدم لذاته . والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد ، فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته ، كان القول والاعتقاد كذلك ، فلهذا سماه الله بالقول الثابت .

الثاني : ان هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو مؤثر في ازالة الذنب ، لأن الموحّد وان عظمت ذنوبه ، إلا أنه ترجى له المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٢) . والكافر وان عظم كفره إذا رجع من الكفر الى التوحيد هدم التوحيد كفره .

الثالث : ان هذه الكلمة ثابتة في الآخرة ، لا ترتفع عن العبيد ، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون (٣) في الجنة بذكر التوحيد . ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ (٤) . ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (٥) . ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ (٦) .

الرابع : انها ثابتة لأن أصلها محكم ، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ (٧) . فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله ، وشهادة الله هي الأصل ، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة .

الخامس : ان الانسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، ومع

(٦) الأعراف (٤٣/٧)

(٧) آل عمران (١٨/٣)

(١) إبراهيم (٢٧/١٤)

(٢) النساء (١١٦/٤)

(٣) مشغولون (ج)

(٤) فاطر (٣٤/٣٥)

(٥) الزمر (٧٤/٣٩)

هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار .

أما بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، فإن
فرعون أغرق في الماء أولاً ، ثم انتقل من الماء إلى النار ، بدليل قوله تعالى :
﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾^(١) . وعجل السامري^(٢) أحرق بالنار أولاً ، ثم نُقل
من النار إلى الماء . بدليل قوله تعالى : ﴿ لنحرقنه ثم لنسفنه في اليم
نسفاً ﴾^(٣) .

وأما أنه مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء ولا النار ، فإن إبراهيم
وموسى عليهما السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة ، فلم تعمل النار في
إبراهيم ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾^(٤) . ولم يعمل الماء في
موسى : ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه
إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾^(٥) .

الاسم التاسع : « كلمة التقوى »

قال الله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾^(٦) . وفي سبب هذه
التسمية وجوه :

الأول : أنه لما اتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربه بما وصفه به
المشركون وصفت^(٧) هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى ، ورأس التقوى اتقاء

(١) نوح (٢٥/٧١) . راجع في تفسير هذه الآية التسهيل لعلوم التنزيل (١٥١/٤) .

(٢) عجل السامري هو عجل صنعه موسى السامري من بني اسرائيل قال تعالى فيه ﴿ فأخرج لهم
عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ طه [٢٠ / ٨٨] وقد عبد هذا
العجل بنو اسرائيل في غيبة موسى وقالوا لهارون : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا

موسى ﴾ [طه ٩١/٢٠] . (٥) القصص (٧/٢٨)

(٣) طه (٩٧/٢٠) (٦) الفتح (٢٦/٤٨)

(٤) الأنبياء (٦٩/٢١) (٧) وصفها (ج) وهي خطأ .

لكلمة الكفر .

ثم في هذه الآية اشارة وبشارة .

أما الإشارة فهي انه تعالى سمى نفسه ﴿أهل التقوى﴾ فقال : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾^(١) . وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ . وكأنه تعالى يقول : أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف .

وأما البشارة فهي أنه تعالى قال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾^(٢) . فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهم أهل هذه الكلمة ، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه ، فهذا يدل على أنه لا ينزع الإيمان من قلب المؤمن .

الثاني : في بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى : هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف ، ولمالك من الاستغنام ، ولذمتك من الجزية ، ولأولادك من السبي^(٣) ، فإن انضاف القلب الى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر ، وإن انضم التوفيق اليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ، ثم قال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ . أي : نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة ، فنحن أردناهم أولاً ، وهم ما أرادونا^(٤) . فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب ، وتقريره بقوله تعالى : ﴿ يمينون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا علي أسلامكم ، بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان ﴾^(٥) .

(١) المدثر (٥٦/٧٤) راجع تفسير روح المعاني للألوسي (١٣٥ / ٢٩)

(٢) الفتح (٢٦/٤٨) .

(٣) من الاسترقاق (ج) .

(٤) وهذه هي حجة الله سبحانه وتعالى لعباده فهو جل شأنه دائماً يبدوهم بالخير وما فيه إصلاح حالهم .

(٥) الحجرات (١٧/٤٩) .

الاسم العاشر: «الكلمة الباقية»

روي عن كثير من المفسرين انهم قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾^(١) . انها قول لا إله إلا الله^(٢) ويدل عليه وجوه :

الأول : مقدمة هذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾^(٣) وكان معنى قوله : ﴿ انني براء ﴾^(٤) . نفي الإلهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها ، ثم قال : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ . فكان فيه إثبات الإلهية للذي فطره ، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول : لا إله إلا الله . ثم قال : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾^(٥) . فثبت أن المراد من الكلمة الباقية قول لا إله إلا الله .

الثاني : انه تعالى قال في سورة القصص : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ﴾^(٦) . فبين أن كل شيء هالك إلا هو ، فإنه واجب الدوام والبقاء ، والسرمدية . وقد عرفت ان القول تبع المقول ، والاعتقاد تبع المعتقد ، فكان صدق لا إله إلا الله ، وحقيقة لا إله إلا الله واجبي الثبوت والبقاء والدوام ، وذلك هو المراد بكونها باقية .

الثالث : انا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية ، والمعصية تزول بسبب التوحيد ، وأيضاً التوحيد يبقى مع أهل الجنة ، وسائر الطاعات لا تبقى ، روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل ان الله يقول يوم القيامة : ما لي أرى فلان بن فلان في صفوف أهل النار؟ فأقول : يا رب ،

(١) الزخرف (٢٨/٤٣)

(٢) راجع تفسير الخازن (٨٦/٣)

(٣) الزخرف (٢٦/٤٣ ، ٢٧)

(٤) إني بريء (الأصل) وهذا خطأ وما أوردناه أصح .

(٥) الزخرف (٢٨/٤٣) أي باقية الى يوم الدين . راجع مختصر ابن كثير (٢٨٨/٣)

(٦) القصص (٨٨/٢٨) راجع تفسير البيضاوي (٩٦/٢) .

إننا لم نجد له حسنة . فيقول الله تعالى : إني سمعته في الدنيا يقول : يا حنان يا منان ، فاذهب اليه فسله . فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنم يقول : يا حنان يا منان ، فيسأله جبريل عن هذه الكلمة ، فيقول : وهل حنان منان غير الله ، قال جبريل : فأخذ بيده من صفوف أهل النار ، فأدخله في صفوف أهل الجنة (١) .

الاسم الحادي عشر: « كلمة الله العليا »

قال الله تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ﴾ (٢) . واعلم ان السبب في علو هذه الكلمة وجوه :

الأول : هو ان القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبية ، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب استعقب حصول قوة وهيبة ربانية ، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيوية ، ويستحقرون عظماء الملوك (٣) ولا يبالون بالقتل (٤) . ولا يقيمون شئاً من طيبات الدنيا وزناً ، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة .

وانظر الى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة ، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل ، وأن محمداً ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت الى الملوكوت ، كما قال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٥) .

السبب الثاني في كون هذه الكلمة عالية : استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ (٦) .

(١) وهذا الحديث لم أقف له على أصل فيما بين يدي من مراجع . (٢) التوبة (٤٠/٩) .

(٣) لأن رسالتهم رسالة دائمة فيها خبر الدنيا ونعيم الآخرة أما الملوك فسلطانهم في الدنيا وزخرفها وزينتها وآخرتهم الله وحده يعلم مصيرهم فيها فكان من الأوائل أشرف .

(٤) لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقع الطعن إلا في نحورهم إذ يدفعون بأنفسهم في ساحات الجهاد دون توجس أو تقاعس .

(٥) النجم (١٧/٥٣) .

(٦) التوبة (٣٣/٩) .

الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فإنها تزيل جميع الذنوب ،
وشيء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة .

الاسم الثاني عشر: « المثل الأعلى »

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ والله المثل الأعلى ﴾^(١) . : معناه قول :
« لا إله إلا الله » . . واعلم ان معنى المثل هنا الصفة ، كذا قال أهل اللغة ،
ونظيره قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾^(٢) أي صفتها . فصار
المراد من قوله : ﴿ والله المثل الأعلى ﴾ عين المراد من قوله : ﴿ وكلمة الله هي
العليا ﴾ .

الاسم الثالث عشر « كلمة السواء »

قال الله تعالى : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾^(٣) . قال
أبو العالية الرباحي : هي كلمة « لا إله إلا الله » . والدليل عليه أنه تعالى
قال بعده : ﴿ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾^(٤) . ولا معنى لهذه الآية
الا ما هو المراد من قول : « لا إله إلا الله » . فثبت أن المراد من كلمة السواء
هو كلمة « لا إله إلا الله » .

وبما يقرر ذلك : أن جميع العقول معترفة بصحة « لا إله إلا الله » وجميع
الأسنة ناطقة بها ، وجميع الرقاب خاضعة لها ، قال الله تعالى : ﴿ ولئن
سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن
الله ﴾^(٥) .

(٤) آل عمران (٦٤/٣)

(١) النحل (٦٠/١٦)

(٥) العنكبوت (٦١/٢٩) راجع التسهيل (١١٩/٣)

(٢) الرعد (٣٥/١٣)

(٣) آل عمران (٦٤/٣)

وأيضاً يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ، وتوجب الاستقامة ، وترك الاعوجاج في الأمور .

الاسم الرابع عشر : « كلمة النجاة »

والذي يدل عليه القرآن والحديث والعقول .

أما القرآن فمن وجهين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾^(١) . فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله . وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجوة وتدعوني إلى النار ﴾^(٢) . النجاة قول لا إله إلا الله .

وأما الأخبار فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ، ونريد ههنا أخباراً أخرى أحدها ما روى جابر بن عبد الله أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الموحدين فقال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار »^(٣) .

وثانيها : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه [الصلاة و] السلام : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله »^(٤) .

وثالثها : رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله مقبلاً

(١) النساء (٤ / ٤٨) راجع الطبري (٨ / ٤٥٠) و (٨ / ٤٥٢)

(٢) غافر (٤٠ / ٤١) .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وروى البخاري عن أنس (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار)

(٤) أخرجه أبو داود ، وسبق تخريجه .

مغموماً بعد رسول الله عليه [الصلاة والسلام] فقال : ما لك ؟ قال :
« سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى
مات ، سمعته يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها
لونه ، ونفس الله بها كربته . فقال : إني لأعلم ما هي ، فقال : وما هي ؟
قال : الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت ، وهي : لا إله إلا الله ، فقال
طلحة : صدقت ، هي والله »^(١) .

ورابعها : روى أبو أمامة قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في
الناس : « من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وخامسها : قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة : اكشفوا عني سجف
القبّة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يمنعني أن
أحدثكموه إلا أن تتكلوا ، أو تتركوا العمل ، وتردوا النار . سمعته يقول :
« من قال : لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة ، ولم تمسه النار »^(٢) .

وسادسها : عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله
ﷺ : « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ،
يجري بها لسانه ، ويطمئن بها قلبه ، حرمت عليه النار »^(٣) .

وسابعها : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
لأبي ذر : « نادِ في الناس : من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة » .
قال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » - حتى قالها
ثلاث مرات - فقال الثالثة : « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر »^(٤) .

وثامنها : روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان

(١) أخرجه أحمد عن عمرو عن جابر وعن عثمان .

(٢) أخرجه النسائي .

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه والترمذي .

(٤) رواه الشيخان ، وقد أخطأ المؤلف رحمه الله إذ أورده عن أبي الدرداء وهو غير ذلك حقيقة .

آخر كلامه لا إله إلا الله ، وفاضت نفسه بعده ، دخل الجنة ^(١) .

الاسم الخامس عشر: « العهد »

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ ^(٢) . : العهد هو قول لا إله إلا الله . وأقول : الذي يدل على صحة هذا القول وجوه :

الأول : أن قوله : ﴿ الا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ نكرة في طرف الثبوت ، وذلك لا يفيد إلا عهداً واحداً ، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان فإن الواحد منه ، بل مجموعة لا يفيد تلك الشفاعة البتة ، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان ، وهو قول : لا إله إلا الله .

والثاني : ان جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ ^(٣) ، هو عهد الإيمان ، بدليل أن لفظ العهد مجمل ، فلما أعقبه بقوله : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ﴾ ^(٤) ، علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان ، وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

والثالث : ان أول ما وقع في العهد قوله تعالى : ﴿ أَلست بربكم ، قالوا بلى ﴾ ^(٥) . وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله ، فكأن لفظ العهد محمول عليه .

(١) أخرجه الترمذي والدارمي . راجع كشف الخفا (٣٧٥/٢ ، ٣٧٦)

(٢) مريم (٨٨/١٩)

(٣) البقرة (٤٠/٢)

(٤) البقرة (٤١/٢)

(٥) الأعراف (١٧٢/٧)

والرابع : انه تعالى قال : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم ﴾^(١) . فكان العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والريوية ، فثبت بهذه الوجوه : ان المراد من قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾^(٢) . هو قول : لا إله إلا الله .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ قل اتخذتم عند الله عهداً ﴾^(٣) . أي قلتم لا إله إلا الله^(٤)

الاسم السادس عشر: « كلمة الإستقامة »

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾^(٥) . قال ابن مسعود رضي الله عنه : المراد من قوله تعالى : ﴿ استقاموا ﴾ هو قول لا إله إلا الله^(٦) ، وذلك لأن قولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ إقراراً بوجود الرب ، ثم أن من المقرين بذلك من أثبت له نداً أو شريكاً فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم والصراط المستقيم .

واعلم ان السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء ، فمن الناس من أنكر الوحداية ، وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة في الدين لا

(١) التوبة (١١١/٩) راجع الطبري (٣٥/١١) والتفسير الكبير للفخر الرازي مؤلف هذا

الكتاب (١٩٩/١٦) وكشاف الزمخشري (٣١٤/٢)

(٢) مريم (٨٧/١٩)

(٣) البقرة (٨٠/٢)

(٤) راجع الدر المنثور (٤٠/١)

(٥) فصلت (٣٠/٤١)

(٦) الدر المنثور (٦٥/٤)

تحصل إلا بنفي الشركاء ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾^(١) .

ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر ، إلا أنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد ، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة الى الكواكب ، ويضيف الصحة والمرض الى الدواء والغذاء ، ويضيف الفعل الى العبد على سبيل الاستقلال^(٢) ، فكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ومنهم من ترك كل ذلك ، ولكنه قد يطيع النفس والشهوة في بعض الأفعال ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ أفرأيت من اتخذ الهه هواه ﴾^(٣) . وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي ، وهو المراد من قوله تعالى حكاية عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾^(٤) . وقول يوسف عليه السلام : ﴿ توفي مسلماً ﴾^(٥) . فإن الأنبياء عليهم السلام مبرأون عن الشرك الجلي ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي ، وهي الالتفات الى غير الله ، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات ، فلذلك السبب تضرع الأنبياء عليهم السلام الى الله تعالى في ان يصرفه عنهم^(٦) .

الاسم السابع عشر : « مقاليد السموات والأرض »

قال الله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾^(٧) . قال ابن

(١) البقرة (٢٢/٢)

(٢) والكثير من الناس يتلهون بالسبب وينسبون المسبب وهذا هو الخطأ الجسيم .

(٣) الجاثية (٢٣/٤٥) راجع تفسير البحر المحيط (٤٨/٨)

(٤) البقرة (١٢٨/٢) .

(٥) يوسف (١٠١/١٢) وهنا يوسف لم يتمن الوفاة وإنما الوفاة على الاسلام .

(٦) ان يصونهم عنه (هامش ج) من نسخة أخرى .

(٧) الزمر (٦٣/٣٩٨)

عباس : هو قول لا إله إلا الله^(١) . . وأقول : هذا هو الحق ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى بين أنه لو كان في الوجود إلهان لحصل الفساد في العالم ، ولاختلت المصالح ، قال الله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾^(٢) . فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم ، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم . فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول : لا إله إلا الله .

الثاني : أنا بينا أن الشرك سبب لفساد العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . إن دعوا للرحمن ولداً ﴾^(٣) . وإذا كان كذلك كان التوحيد سبباً ل عمران العالم .

الثالث : ان ابواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول : لا إله إلا الله ، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بهذا القول ، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول ، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة ، وأنواع الوسواس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض ، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول^(٤) .

الاسم الثامن عشر: « السديد »

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾^(٥) قيل في تفسيره : الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع

(١) راجع تفسير القرطبي (٩٥/١٦)

(٢) الأنبياء (٢٢/٢١) .

(٣) مريم (٩١/٩٠/١٩) .

(٤) قال تعالى : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد ايها الجاهلون ﴾ [الزمر ٢٤/٣٩] راجع مختصر ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢٢٨/٣) .

(٥) الأحزاب (٧٠/٣٣) يقول الإمام الطبري : قولاً سديداً أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل . راجع الطبري (٣٨/٢٢)

بمعنى السامع ، وقد يكون بمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، والجريح بمعنى المجروح . فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه : أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم . وإذا حملته^(١) على معنى المفعول كان معناه : أنه يسد عن أن يضره شيء من الذنوب .

وأيضاً فإن ذا القرنين بنى السد دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج ، والله تعالى جعل الإيمان سداً لضرر الشياطين من الجن والإنس .

الاسم التاسع عشر : « البر »

قال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾^(٢) . والاشارة في الآية : ان من كان مشغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، إنما صاحب البر هو الذي يتوجه الى صاحب الكعبة : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾^(٣) . فقله : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ اشارة الى الكثرة والقول بالشركاء ، وقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ اشارة الى التوحيد ، فصار معناه هو المفهوم من قول « لا إله إلا الله » .

الاسم العشرون : الدين

قال الله تعالى : ﴿ ألا الله الدين الخالص ﴾ . وأعلم أن الدين هو : الانقياد والخضوع . قال عليه [الصلاة و] السلام في دعواته : « يا من دانت

(١) حملته (ج)

(٢) البقرة (١٧٧/٢) .

(٣) الانعام (٧٩/٦) .

له الرقاب»^(٢) أي خضعت . فقلوه : ﴿ألا الله الدين الخالص﴾ . أي له الخضوع والخشوع لا لغيره . وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في الآلية ، إذ لو وجد إلهان لكان كما أن الخضوع لأحدهما حاصل كان أيضاً حاصلاً للثاني ، فلا يمكن ثبوت الخضوع إلا لله فقط ، فالحصر دل على أنه لا إله سواه ، ولا معبود إلا إياه .

الاسم الحادي والعشرون : « الصراط »

قال تعالى : ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾^(٣) . وقال حكاية عن رسوله : ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه﴾^(٤) . وقال : ﴿وإنك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾^(٥) .

واعلم أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله . وذلك باعتبار أن حدوث كل محدث ، وإمكان كل ممكن ، يحوجه إلى المؤثر الذي يوجد وينقله من العدم الى الوجود ، وإذا كان الموجد والمدير واحداً ، فمتى نسبت حدوث المحدثات ، ووجود الممكنات الى قدرته كان ذلك صراطاً مستقيماً ، وطريقاً قوياً ، ومتى نسبت حدوث محدث ، ووجود ممكن الى غير قدرته ، كان ذلك طريقاً معوجاً ، وسبيلاً منحرفاً ، فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل إلا باسناد كل الحوادث والممكنات الى تخلق الله وتكوينه ، واسناد الكل اليه ، فهو التوحيد ، فثبت ان الصراط المستقيم هو قولنا : لا إله إلا الله .

(١) الزمر (٣/٣٩) .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) الفاتحة (٦/١) .

(٤) الأنعام (١٥٣/٦) راجع مختصر ابن كثير (٦٣٣/١)

(٥) الشورى (٥٢/٤٢ ، ٥٣) أي أنك يا محمد لتهدي وترشد الى دين قيم مستقيم . راجع

صفوة التفاسير (١٣١١/٢٥) بتصرف .

الاسم الثاني والعشرون : « كلمة الحق »

لقلوله تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ﴾^(١) . يعني قول لا إله إلا الله^(٢) .

الاسم الثالث والعشرون : « العروة الوثقى »

قال الله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾^(٣) . يعني : كلمة لا إله إلا الله^(٤) .

الاسم الرابع والعشرون : « كلمة الصدق »

لقلوله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾^(٥) . أي قول لا إله إلا الله^(٦) .

فهذا جملة الكلام في لا إله إلا الله . . . اللهم بحق اسمائك الطاهرة المقدسة ، احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا ، وذكرها على ألسنتنا ، يا أرحم الراحمين .

(١) الزخرف (٨٦/٤٣)

(٢) راجع تفسير الخازن (١٥/٤) .

(٣) البقرة (٢٥٦/٢)

(٤) راجع تفسير القرطبي (١٩٥/١٧) .

(٥) الزمر (٣٣/٣٩)

(٦) راجع الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١٥) .

الفصل الرابع

في

الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

الأول : النار

الأول ان الله تعالى شبه الإيمان بالنار ، فقال : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾^(١) . وقال في آية أخرى : ﴿ وما يوقدون عليه في النار ﴾^(٢) . وفيه اشارتان : الأولى : كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش احترقت كل ما فيه من الغش ، وبقي جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق ، فكذلك يوم القيامة ، إذا عرض المذنب على النار احترقت ذنوبه ومعاصيه ، وبقي إيمانه سليماً من الاحراق .

الثانية : ان النار تحرق كل شيء ، وكذا الايمان إذا قوي نوره حرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾^(٣)

النوع الثاني : النور

النوع الثاني : من الأمور التي شبه الله بها الإيمان : النور ، قال الله تعالى : ﴿ مثل نوره ﴾^(٤) . والسبب في أنه تعالى أضاف المعرفة الى نفسه

(١) البقرة (١٧/٢) راجع مختصر ابن كثير (٣٦/١) .

(٢) الرعد (١٧/١٣) .

(٣) الأنعام (٩١/٦) .

(٤) النور (٣٥ / ٢٤) أي نور الله سبحانه وتعالى : قال ابن عطاء الله « الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه » . وقال ابن مسعود « ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض ونور وجهه » . راجع صفوة التفاسير (٩٣٦/١٨) بتصرف والتسهيل (٦٧/٣) .

وجوه :

الأول : أنه تعالى إنما أضاف المعرفة الى نفسه قطعاً للأطماع عنها ، وذلك لأنها جوهرة نفيسة ، وقيمتها رفيعة ، وصاحبها غافل ، والشيطان محتال مكار ، وجل مقصوده أن يسلب المعرفة من العارف ، ويحول بينه وبينها ، والله تعالى برحمته جعل المعرفة في حمايته ، حتى ينقطع طمع إبليس عنها .

وتحقيقه : أنه لما قال : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾^(١) . فلما أضاف العباد الى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٢) . فهنا لما أضاف الإيمان الى نفسه بقوله : ﴿ مثل نوره ﴾ لا جرم كان إبليس منقطعاً عنه .

الثاني ان كل ما للعبد فهو للحق ، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده ، فإذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة فقد كملت حاله ، فعند ذلك قيل له : كل ماله فهو لنا ، وكل ما لنا فهو له . والمعرفة التي له فهي لنا ، فلا جرم أضافها الى نفسه فقال : ﴿ مثل نوره ﴾ .

الثالث : ان تخصيص الشيء باضافته الى الله تعالى سبب لتشريفه ، كما في قوله : ﴿ وطهر بيتي ﴾^(٣) . وقوله : ﴿ هذه ناقة الله ﴾^(٤) . وقوله : ﴿ وإنه لما قام عبد الله ﴾^(٥) . فكذا هنا ، اضافة المعرفة الى نفسه تدل على أنها أشرف الخلق والتشريفات .

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾^(٦) .

(٢) ص (٨٢ / ٣٨ ، ٨٣) .

(١) الحجر (٤٢ / ١٥)

(٣) الحج (٢٦ / ٢٢) .

(٤) الأعراف (٧٣ / ٧)

(٥) الجن (١٩ / ٧٢) .

(٦) النور (٣٥ / ٢٤)

والجواب من وجوه :

الأول : ان البيت اذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله ،
مخافة أن يفتضح ، وكذا القلب ، اذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر
الشیطان على دخوله مخافة أن يفتضح .

الثاني : ان البيت اذا كان فيه سراج اهتدى صاحبه الى طلب الأمتعة ،
فكذلك القلب اذا كان فيه سراج المعرفة ، استدل صاحبه به الى المشروع في
الطاعات .

الثالث : اذا كان في البيت سراج انتفع بضیائه كل أحد من غیر أن
ينقص من استضاءة صاحبه بنوره [شيئاً] . وكذا كل قلب كان فيه سراج
المعرفة انتفع بنوره غیر صاحبه ، من غیر أن ينقص من نور صاحبه شيء .

الرابع : أن السراج اذا كان في البيت ، وكان موضوعاً في كوة مسدودة
بزجاجة ، اضاء داخل البيت وخارجه ، وكذلك سراج المعرفة يضيء القلب
وخارج القلب ، حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان ، فيظهر فنون
الطاعات في هذه الأعضاء ، وإليه الإشارة بقوله عليه [الصلاة والسلام :
« اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي
عظمي نوراً ، وفي نخي نوراً » ^(١) .

الخامس : ان البيت اذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً ،
فاذا طفيء السراج صار مستوحشاً ، فكذلك القلب ، ما دام فيه سراج
المعرفة ، كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فاذا فارقه والعياذ بالله صار حزيناً
مغموماً ، قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن
يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ ^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات عن ابن مسعود .

(٢) الأنعام (١٢٥/٦) راجع الطبري (١٠٠/١٢)

السادس : أن جرم السراج صغير ، وضوءه منتشر عن كل جانب ،
فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب الى جميع الجوانب كما قال الله تعالى :
﴿ والله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾^(١) وخصوصاً من الجانب
العلوي ، قال الله تعالى : ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾^(٢) .

السؤال الثاني : ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين
سراج المعرفة ؟

والجواب : الفرق من وجوه :

الأول : ان الشمس تحجبها غمامة ، والمعرفة لا تحجبها سبع سموات .

الثاني : أن الشمس تغيب بالليل ، والمعرفة لا تغيب لا ليلاً ولا نهاراً ،
بل هي في الليل آكد ، قال الله تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم
قيلاً ﴾^(٣) . وقال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾^(٤) . وقال :
﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾^(٥) .

والثالث : ان الشمس تفتنى ، قال الله تعالى : ﴿ إذا الشمس
كورت ﴾^(٦) . وأما المعرفة فلا تفتنى . قال الله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا
وجهه ﴾^(٧) . أي إلا ما حصل برضاه .

الرابع : الشمس تنكشف ، والمعرفة لا تنكشف^(٨) .

(١) البقرة (١١٥/٢)

(٢) فاطر (١/٣٥)

(٣) المزمل (١٦/٧٣)

(٤) الإسراء (١/١٧)

(٥) القدر (٣/٩٧) .

(٦) التكوير (١/٨١)

(٧) القصص (٨٨/٢٨) .

(٨) ولكنها تنكشف عن القلوب الشهوانية التي تطغى عليها الشهوة فتفسد عليها ما أراد المنهج لها
من الخير والفضل والسعادة .

الخامس : الشمس تسود الأشياء والمعرفة تبيضها .

السادس : الشمس تحرق ، والمعرفة تنجي من الحرق .

السابع : الشمس تارة تضرو تارة تنفع ، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة .

الثامن : الشمس منفعتها في الدنيا ، والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة .

التاسع : الشمس في السماء زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء .

العاشر : الشمس في الفوق ، وهي تضيء ما تحتها ، والمعرفة في قلب المؤمن ، وهو في التحت ، وهي تضيء ما فوقها .

الحادي عشر : بالشمس ينكشف وجود الخلق^(١) ، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق . والدليل عليه قول أمير المؤمنين علي حين قيل له : هل رأيت ربك ؟ فقال : لا أعبد رباً لم آيه .

الثاني عشر : الشمس تقع على العدو والولي ، والمعرفة ليست إلا للولي .

الثالث عشر : ولاية الشمس في الدنيا دون الآخرة ، أما المعرفة فإنها في الدنيا بداية ، وفي الآخرة ذات ولاية .

وأيضاً فإن الكوكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق^(٢)

وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والمعرفة تطلع من خزانة الملك .

وأيضاً فإن الكواكب علامة ، والمعرفة كرامة .

(١) وهي كذلك تنطق عن اعجاز الخالق جل شأنه .

(٢) لعل هذا التكرار من الناسخ .

وأيضاً فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين ، والمعرفة موضع نظر رب العالمين . قال عليه السلام : « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا أموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم »^(١) .

السؤال الثالث : ما الفرق بين السراج والمعرفة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن سراج الدنيا مشوب بنوره بالظلمة ، وهي الدخان الذي يعلوه ، وسراج المعرفة نوره صاف ، لا ظلمة معه .

الثاني : أن سراج الدنيا يحرق نفسه ليتتفع به غيره ، وسراج المعرفة يحرق الذنب ، ويروح السر ، وينور الصدر .

الثالث : أن سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس ، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس في نوره .

الرابع : أن سراج الدنيا لا وفاء له ، يحرق من أوقده ، ومن أمدّه بالفتيل ، كما يحرق من لم يوقده ولم يمدّه بالفتيل ، وسراج المعرفة ذو وفاء ، لا يحرق صاحبه البتة ، بل ينجيه من الحرق ، فشتان ما بين السراجين .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن المصباح تضره الرياح ، والمعرفة يضرها الوسواس والشبهات .

الثاني : أن المصباح لا يبقى بغير الدهن ، والمعرفة لا تبقى بغير التوفيق .

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأبو يعلى عن عمران بن الحصين . وذلك لأن القلوب هي مستقر النيات ولا ثواب إلا بالنية ونية المرء خير من عمله .

الثالث : لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ، ولا بد للمصباح المعرفة من متعهده وهو فضل الله ورحمته .

السؤال الخامس : ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : ان الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنها كثيفان ، يوقعان الحجاب ، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب ، فإنه يرى ظاهرها من باطنها وبالضد ، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه .

الثاني : انه ليس لأنية الزجاجة خطر ، إنما الخطر في الآنية ، فكذا ليس لقلبك خطر ، إنما الخطر للإيمان .

الثالث : اذا انكسرت الزجاجة لم تصلح^(١) . إلا بإدخال النار والإذابة ، وكذا القلب ، إذا فسد لم يصلح إلا بإدخال النار والإذابة ﴿ وان منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً . ثم ننجي الذين اتقوا ﴾^(٢)

الرابع : ان صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الإنكسار ، وأما صاحب الزجاجة فإنه على حذر ووجل ، لعلمه بأنها إذا أنكسرت بطلت قيمتها ، فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة .

الخامس : شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في الذهب والفضة . والزجاجة لقلّة قيمتها ، واستعدادها للانكسار والبطلان

(١) لم تصلح (ج)

(٢) مريم (٧٠/١٩ ، ٧١) . راجع تفسير البيضاوي (١٩/٢) إذ يقول إن الورود عليها معناه الجشو حواليتها ، وقال العلماء في تأويل الورود أقوالاً كثيرة ، راجع الفخر الرازي الكبير (٢٤١/٢١) .

صار النور فيها أحسن ، وهو اشارة الى قوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم »^(١) .

السؤال السادس : ما الحكمة في تشبيه الزجاجاة بالكوكب الدري ؟

الجواب من وجوه :

الأول : ان الكوكب الدري فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى : ﴿ وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون ﴾^(٢) . ولأهل السماء زينة ، قال تعالى : ﴿ أنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾^(٣) . وكذلك [قلب] المؤمن ، سبب لهداية صاحبه الى الخيرات ، وأيضاً نزهة لأهل السماء ، فإنه روي أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض .

الثاني : الكوكب لا قدرة للشياطين عليه ، بل الكوكب يحرق الشياطين ، قال الله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾^(٤) . فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه ، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين ، ولذلك قال : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾^(٥) . وقال : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾^(٦) . ولم يقل : في قلوب الناس . وقال : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾^(٧) . فذلك التذكر هو ظهور نور الإيمان . وقوله : ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ اشارة الى احتراق وساوس الشياطين .

السؤال السابع : ما الحكمة في أنه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس

والقمر ؟

(١) لعل هذا من قول بعض المتصوفة فلم أعثر عليه في مصدر من مصادر الحديث الوثيقة .

(٢) النحل (١٦/١٦) .

(٣) الصافات (٦/٣٧) .

(٤) الملك (٥/٦٧) .

(٥) الحجر (٤٢/١٥) .

(٦) الناس (٥/١١٤) .

(٧) الأعراف (٢٠١/٧) .

الجواب من وجوه :

الأول : ان الكوكب مستتر بالنهار ويظهر بالليل ، والعارف مستور بالنهار ، فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع .

الثاني : ان الكوكب زينة السماء ، والقلب زينة العارف .

الثالث : ان الكواكب مصابيح السماء : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح ﴾^(١) . والقلب مصباح العارف ، قال تعالى : ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾^(٢)

السؤال الثامن : هل في تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان ؟ .

الجواب من وجوه :

الأول : إن الشمس سراج استوقده الله تعالى للبقاء ، فكيف يقدر إبليس على إطفائه ؟

الثاني : استوقد الله تعالى سراج الشمس في السماء ، فهي تزيل الظلمة عن بيتك ، فاذا استوقد شمس المعرفة في قلبك كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب ؟

الثالث : من استوقد سراجاً فعليه تعهده ، والله هو الموقد لسراج المعرفة ، قال الله تعالى : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾^(٣) . فلا جرم أوجب على رحمته امداده وتعهدده ، وعواطف تعهده عاطفة حافظة ، كما قال تعالى : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٤) .

(١) الملك (٥/٦٧) .

(٢) النور (٣٥/٢٤)

(٣) المجادلة (٢٢/٥٨)

(٤) الحجر (٩/١٥) .

الرابع : اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك ، البيت بالسرقة ، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك ، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك ؟^(١) .

الخامس : المجوس أوقدوا ناراً ولا يريدون أطفائها ، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة في قلبك ، فكيف يرضى باطفائها وإبطالها .

السادس : من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء الى زناد ، وحجر ، وحقاق ، وكبريت ، ومسرحة ، وفتيل ، ودهن . والعبد إذا طلب أن يوقد^(٢) سراج المعرفة فلا بد من زناد الجهد ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾^(٣) وحجر التضرع ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾^(٤) . وأما الحراق فهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾^(٥) . والرابع كبريت الانابة ﴿ وأنبيوا الى ربكم ﴾^(٦) . والخامس : مسرحة الصبر ﴿ واصبروا ، ان الله مع الصابرين ﴾^(٧) . والسادس : فتيل الشكر ﴿ واشكروا نعمة الله ان كنتم إياه تعبدون ﴾^(٨) . والسابع دهن الرضاء بقضاء ربك ، قال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾^(٩) . وقال عليه السلام : « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم »^(١٠) . فهذه الحرفة متعلقة بك

(١) ولا سلطان للشيطان على المؤمن القوي اليقين بربه ، قال تعالى : ﴿ قال فبعتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ص (٨٣ / ٣٨) . وقال ايضاً : ﴿ ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٠]

(٢) أن يوجد (ج)

(٣) العنكبوت (٦٩ / ٢٩) .

(٤) الأعراف (٥٥ / ٧) .

(٥) النازعات (٤٠ / ٧٩)

(٦) الزمر (٥٤ / ٣٩)

(٧) الأنفال (٤٦ / ٨)

(٨) النحل (١١٤ / ١٦)

(٩) الطور (٤٨ / ٥٢) .

(١٠) لعله منسوب له ﷺ فليس له مصدر معروف .

في حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفي بعهد الربوبية كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (١) فتحفظ هذه المعرفة في قلبك ، وهذا الذكر في لسانك واجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة .

النوع الثالث

من الأمور التي شبه الله تعالى الإيمان بها : التراب . قال تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ (٢) .

ووجه المشابهة الأول : ان التراب ذو أمانة، من أودع فيه شيئاً سلم إليه أضعافاً ، قال الله تعالى : ﴿ في كل سنبلة مائة حبة ﴾ (٣) . فكذا المؤمن اذا عمل عملاً سلم إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٤) .

الثاني : من خاصية الأرض انها يطرح عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مליح ، فكذا أرض الإيمان ، تطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ، ثم تخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ (٥) .

والثالث : من خاصية الأرض انها كالأم الحاضنة لك ، فهي كال مهد ، قال الله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ (٦) . وكالخزانة لك ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ (٧) . وكالأم المشفقة عليك ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٨) . فكذا الايمان . منه تحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى .

(٥) الفرقان (٧٠/٢٥)

(٦) النبا (٦٠/٧٨) .

(٧) البقرة (٢٩/٢)

(٨) طه (٥٥/٢٠) .

(١) البقرة (٤٠/٢)

(٢) الأعراف (٥٨/٧)

(٣) البقرة (٢٦١/٢)

(٤) الزمر (١٠/٣٩)

النوع الرابع :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان والقرآن : الماء . قال الله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾^(١) . أي الإيمان والكفر . فالزبد الكفر ، والإيمان الماء . وفي تقرير وجه المشابهة وجوه .

الأول : الماء يزيل النجاسة عن الثوب : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾^(٢) . ﴿ وثيابك فطهر ﴾^(٣) . فكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب ، قال عليه [الصلاة و] السلام : « الاسلام يجب ما قبله » .

الثاني : أن الله تعالى سمى الماء المنزل من السماء رحمة ، فقال : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾^(٤) . وسمى القرآن فقال : ﴿ وهدي ورحمة للمؤمنين ﴾^(٥) . وجعل الإيمان رحمة وسبباً للرحمة فقال : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾^(٦) . وقال : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾^(٧) . فلا جرم شبه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب .

الثالث : ان الله تعالى سمى القرآن مباركاً فقال : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾^(٨) . وقال في الماء : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً ﴾^(٩) . فلا جرم شبه الإيمان وكذا القرآن بالماء لكون كل منهما مباركاً .

(١) الرعد (١٧/١٣) .

(٢) الفرقان (٤٨/٢٥) .

(٣) المدثر (٤/٧٤)

(٤) الأعراف (٥٧/٧)

(٥) يونس (٥٧/١٠)

(٦) المجادلة (٢٢/٥٨)

(٧) الأنعام (٥٤/٦)

(٨) الأنبياء (٥٠/٢١)

(٩) ق (٩/٥٠) .

الرابع : ان الماء شفاء للنفوس ، والقرآن شفاء للقلوب ، قال الله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾^(١) . فهو شفاء لقلوبهم ، ورحمة لذنوبهم .

الخامس : كما أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء ، فلا يقدر عليه أحد سواه .

السادس : كما ان الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، وادخال الباطل عليه : ﴿ وإنه كتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾^(٢) .

السابع : ان المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته ، فكذا القرآن لا يحيط أحد بكمال أسرارهِ ، ولطائف حقائقهِ .

الثامن : كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ، ثم يسيل في الأرض نهراً نهراً ، وبحراً بحراً ، فكذلك القرآن ، ينزل من السماء آية آية ، ونجماً نجماً ، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً . وفي الخبر : ان القرآن بحر عميق لا يدرك قعره .

التاسع : كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لاقتلع الأشجار وخرّب الديار ، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح ، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة ، لضلت فيه الأفهام ، وتاهت فيه الأوهام ، قال الله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾^(٣) .

العاشر : كما أن الله تعالى يحیی الأرض بعد موتها بالمطر ، فكذلك أحیا القلوب الميتة بالقرآن . قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾^(٤) .

(٤) الأنعام (١٢٢/٦) .

(١) الإسراء (٨٢/١٧)

(٢) فصلت (٤١/٤١ ، ٤٢)

(٣) الحشر (٢١/٥٩) .

الحادي عشر : كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان ، وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم ، فكذا القرآن ، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية ، وريحان الطاعة ، ويقع على قلب الكافر ، فيخرج منه سم الكفر ، وشوك المعصية . قال الله تعالى : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾^(١) .

الثاني عشر : إن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه ، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم .

الثالث عشر : إن الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك ، فكذلك القرآن ، إذا تكلم فيه واحد بغير علم . قال عليه [الصلاة و] السلام : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »^(٢) .

الرابع عشر : كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع ، فكذلك الكلام في القرآن فوق الفهم والفظنة يضر ولا ينفع . قال عليه [الصلاة و] السلام : « أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم »^(٣) .

الخامس عشر : إذا نزل المطر زال القحط ، وظهر النبات والغذاء والفواكه ، فكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين ، فلما نزل القرآن زال القحط في الدين ، وظهرت أنواع الغذاء والفواكه للروح ، وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع .

السادس عشر : كما أن الماء يطفىء النار ، فكذلك الإيمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذي هو حامل القرآن والإيمان نار جهنم^(٤) .

(١) البقرة (٢٦/٢) .

(٢) أخرجه الحديث الإمام مسلم عن ابن عمر .

(٣) أخرجه ابن ماجه والترمذي .

(٤) وهذا من قبيل الشفاعة اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا اللهم شفعه فينا .

النوع الخامس

من الأشياء التي شبه الله بها الإيمان : الجبل . قال الله تعالى :
﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾^(١) . ووجه المشابهة من وجوه :

الأول : ان من أراد أن يصعد من الأسفل الى العلو ، وخاف من
الانزلاق ، فإذا تمسك بحبل آمن من ذلك الخوف ، فالعبد إذا أراد أن يصعد
من سفلى البشرية الى عالم الجلال والكبرياء ، وخاف ان ينزلق قدم عقله ،
فإذا تمسك بالقرآن آمن منه .

الثاني : ان الأعمى إذا أراد الذهاب الى موضع ، فإن كان بين مكانه
وبين ذلك الموضع جبل ممدود ، وتمسك بذلك الجبل ذهب فارغاً ، من كل
خوف ، فكذلك العقول البشرية كالأعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة ،
فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف .

الثالث : أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل اليه حبل ،
حتى يتعلق به ويصعد ، وينجوسن المهالك ، فالأرواح البشرية وقعت في هاوية
عالم الأجسام^(٢) ، فالملك الرحيم أرسل اليها حبل القرآن ، فمن تعلق به
وصعد نجا ، ومن لم يتعلق به ففي بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين .

النوع السادس

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان : شجرة الزيتون . قال الله
تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين ﴾^(٣) .

(١) آل عمران (١٠٣/٣)

(٢) نتيجة الشهوات المتحكممة فيها المسيرة لها .

(٣) المؤمنون (٢٣/٢٠) .

وذكروا في وجه التشبيه أمرين :

الأول : أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة ، لأن هذه الشجرة في أكثر الأمور إنما تنبت في الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب ، بل في القلوب المطهرة .

الثاني : ان شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذي هو في غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة ، وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

تكريم المؤمنين

واعلم ان الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات :

أولاهها : المغفرة . قال الله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾^(١) . والمعنى : إن قبلوا الإيمان ، وتركوا الكفر .

وثانيتهما : الأمن ، قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾^(٢) .

وثالثتها : الهداية . قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾^(٣) .

ورابعتها : الزيادة . قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾^(٤) .

وخامستها : الفلاح . قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾^(٥) .

وسادستها : الثبات . قال الله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾^(٦) .

(٤) يونس (٢٦ / ١٠)

(٥) المؤمنون (١ / ٢٣)

(٦) ابراهيم (١٤ / ٢٧) .

(١) الأنفال (٣٨ / ٨)

(٢) الأنعام (٨٢ / ٦)

(٣) يونس (٩ / ١٠)

وسابعتها : الشفاعة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾^(١) . يعني قول لا إله إلا الله .

وثامنتها : اصلاح الأعمال . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾^(٢) . الى قوله : ﴿ يَصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾^(٣) .

وتاسعتها : البشرى . قال تعالى : ﴿ وَابْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٤) .

وعاشرتها : كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾^(٦) .

(١) طه (١٠٩/٢٠)

(٢) الأحزاب (٧٠/٣٣) .

(٣) الأحزاب (٧١/٣٣)

(٤) فصلت (٣٠/٤١) .

(٥) يس (٥٨/٣٦) .

(٦) القيامة (٢٢/٧٥ ، ٢٣) راجع تفسير الطبري (١٢٠/٢٩) وابن كثير (٥٧٦/) .

الفصل الخامس

في

شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله وهي وجوه

البحث الأول

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف واضمار . ثم ذكروا فيه وجهين : أحدهما : التقدير : لا إله لنا إلا الله . والثاني : لا إله في الوجود إلا الله . . . واعلم أن هذا الكلام غير سديد لوجوه :

أما الأول : فلأنه لو كان التقدير : لا إله لنا إلا الله ، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال : هب أنه لا إله لنا إلا الله ، فلم قلت : أنه لا إله لجميع المحدثات الممكنات إلا الله ؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾^(١) . قال بعده : ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(١) . لأنه لما قال : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ بقي للسائل أن يسأل ويقول : هب أن الهنا واحد ، فلم قلت أن إله الكل واحد ؟ فلأجل إزالة هذا السؤال قال تعالى بعده : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . ولو كان المراد من قوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أنه لا إله لنا إلا هو كان هذا تكراراً محضاً^(٢) .

وأما الثاني : فهو قولهم : التقدير : لا إله في الوجود إلا الله . فنقول : وأي أمل يحملكم على التزام هذا الاضمار ؟ بل نقول : حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الاضمار الذي ذكرتم . وذلك لأننا لو ألزمتنا ذلك الاضمار كان معناه : لا إله في الوجود إلا هو ، فكان هذا نفيّاً لوجود

(١) البقرة (١٦٣/٢)

(٢) محضاً : صريحاً خالصاً .

الإله^(١) . أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفيًا لماهية الإله الثاني .
ومعلوم أن نفي الماهية أولى وأقوى من إثبات التوحيد في نفي الوجود ، فثبت
أن اجراء الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : إن نفي الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس
بسواد ، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب الى نقيضه ، وصيرورة الشيء
عين نقيضه غير معقول . أما إذا قلت : السواد غير موجود كان هذا كلاماً
معقولاً ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الاضمار .

فالجواب : إن قولكم نفي الماهية غير معقول وباطل^(٢) . فإنك إذا
قلت : السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود ، لكن الوجود من حيث هو
وجود ماهية ، فإذا نفيت الماهية المسماة بالوجود ، وإذا كان كذلك صار نفي
الماهية أمراً معقولاً ، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز اجراء هذه الكلمة على
ظاهرها ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت الماهية ، وما
نفيت الوجود أيضاً ، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود ، فنقول : موصوفية
الماهية بالوجود ، هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا ؟ فإن كانت مغايرة
لها كانت تلك المغايرة ماهية ، فكأن قولنا : السواد ليس بموجود نفيًا لتلك
الماهية المسماة بالموصوفية ، وحتى يعود الكلام المذكور . وأما إن قلنا : إن
موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي
إليها ، وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً اما إلى أي ماهية ، واما إلى
الوجود ، وحتى يحصل غرضنا من الماهية يمكن نفيها ، وإذا كان الأمر كذلك
صح قولنا : لا إله إلا الله حقاً وصدقاً من غير إضمار .

(١) وهذه من فلسفة المؤلف التي انتهجها في كل ما عرض عليه وما تعرض له من مسائل
وقضايا .

(٢) قلنا : هذا باطل (ج)

البحث الثاني

قال النحويون : قولنا لا إله إلا الله ارتفع لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم . وبيانه : إنك إذا قلت : ما جاءني رجل إلا زيد ، فزيد مرفوع بالبدلية ، لأن البدل هو الإعراض عن الأول ، والأخذ بالثاني ، فصار التقدير : ما جاءني إلا زيد . وهذا معقول ، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد ، وأما قوله : جاءني القوم إلا زيد ، فهنا البدلية غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير : جاءني إلا زيد ، وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلا زيداً . وذلك محال ، فظهر الفرق .

البحث الثالث

اتفق النحويون على أن محل « الا » في هذه الكلمة محل غير .
والتقدير : لا إله غير الله . وهو كقول الشاعر :
وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه . قال الله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾^(١) . قالوا : التقدير : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . والذي يدل على صحة ما قلناه : أنه لو حملنا « الا » على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام : لا إله يستثنى عنهم الله . فيكون هذا نفيّاً لآلهة يستثنى عنهم الله ، ولا يكون الآلهة [بحيث] يستثنى عنهم الله ، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك ، وهو كفر . فثبت أنه لو كانت كلمة « الا » محمولة على الاستثناء لم

(١) الأنبياء (٢٢/٢١) . ووجه الفساد أنه لو كان ثمة أكثر من إله فإن لكل إله منهجاً وسلوكاً خاصاً به وهو قطعاً لا بد أن يتعارض مع إله آخر ومن ثم يختل التوازن الكوني والانسجام الطبيعي الذي فطر عليه الكون ، فهذا وهم وزعم مرفوض لا يقبله عقل سليم أو فطرة سوية .

يكن قولنا : لا إله إلا الله توحيداً محضاً . ولما اجتمعت العقلاء على انها تفيد التوحيد المحض وجب حمل « ألا » على معنى « غير » حتى يكون معنى الكلام : لا إله غير الله .

البحث الرابع :

قال جماعة من الأصوليين : الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً .
احتجوا عليه بحجتين :

الأولى : ان الاستثناء مأخوذ من قولك : ثنيت الشيء عن جهته ، إذا صرفته عنها ، فإذا قلت : لا عالم ، فهنا أمران : أحدهما الحكم بهذا العدم ، والثاني نفس هذا العدم ، ثم إذا قلت عقيبه : لا زيد ، فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً الى الحكم بذلك العدم ، ويحتمل أن يكون عائداً الى نفس ذلك العدم ، فإذا كان عائداً الى الحكم بالعدم ، لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم ، وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه ، غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالاثبات ، وحينئذ لا يلزم الثبوت . أما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه ، فحينئذ يلزم تحقق الثبوت ، لأنه لما ارتفع العدم وجب حصول الوجود ، ضرورة انه لا واسطة بين النقيضين . وإذا ثبت هذا فنقول : عود الاستثناء الى الحكم بالعدم أولى من عوده الى نفس العدم ، وهذا يدل عليه وجهان : الأول : أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية ، لا على الموجودات الخارجية ، فإنك إذا قلت : العالم قديم ، فهذا يدل على كون العالم قديماً في نفسه ، ولكن إذا قلنا : العالم حادث ، لزم كون العالم قديماً وحادثاً ، وذلك محال ، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقديم العالم . وإذا كانت الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء الى الحكم بالعدم أولى من صرفه الى نفس ذلك العدم . والسوجه

الثاني في بيان عود الاستثناء الى الحكم بالعدم أولى من عوده الى نفس ذلك العدم ، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا القائل ، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم ، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء الى الحكم أولى من عوده الى المحكوم به .

الحجة الثانية : في بيان كون الاستثناء من النفي ليس بإثبات هي انه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة للاستثناء مع أنه لا يقتضي الثبوت . قال عليه [الصلاة و] السلام : « لا نكاح إلا بولي »^(١) . و « لا صلاة إلا بطهور » . ويقال في العرف : لا عز إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال . ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط . اقصى ما في الباب ان يقال : قد ورد هذا اللفظ في صورة أخرى ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي اثباتاً ، لأننا نقول : انه لا بد وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين ، إلا أننا نقول : إذا قلنا : انه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً ، بحيث أفاد ذلك ، احتمال أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر ، ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه ، فإن قلنا : أنه يقتضي ان يكون الخارج من النفي اثباتاً بحيث لا يفيد ذلك ، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلاً عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ، لأن أثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل ، أما ترك ما دليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء من النفي لا يكون أثباتاً . فإذا ثبت هذا كان قولنا « لا إله إلا الله » تصريحاً بنفي سائر الآلهة ، ولا يكون اعترافاً بوجود الله . وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان .

وههنا اشكال آخر ، وهو اننا قد دللنا على أن « الا » بمعنى غير في هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان قولنا « لا إله إلا الله » معناه : لا إله غير الله . فيصير المعنى نفي اله يغاير الله ، ولا يلزم من نفي ما يغاير الشيء إثبات هذا . وحينئذ يعود الاشكال .

(١) قال عليه الصلاة والسلام (لا نكاح إلا بولي) فليس معنى هذا أن وجود الولي يحتم إتمام النكاح فقد يحضر الولي ولا ينعقد النكاح ولا يتم .

والجواب من وجهين : الأول : ان اثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن الله ﴾^(١) . فكان ذلك مفروغاً عنه ، متفقاً عليه ، إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد ، فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد ، فأما القول بإثبات الإله للعالم فذلك من لوازم العقول . . الثاني : إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة دلت على إثبات إلهية الله تعالى ، إلا أنا نقول : هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة . فهذا تمام القول في هذا المقام .

البحث الخامس

اعلم انه يجوز أن يقال : لا رجل في الدار ، وأن يقال : لا رجل إلا في الدار . أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية ، والدليل عليه أن قولنا : « لا رجل » يقتضي نفي ماهية الرجل ، ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل أفراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبت الماهية ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية فقد ثبتت الماهية لا محالة . وأما قولنا : « لا رجل إلا في الدار » . فهو نقيض قولنا « لا رجل في الدار » ولكن قولنا : لا رجل إلا في الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، فقولنا لا رجل في الدار وجب أن يفيد عموم النفي ، حتى يتحقق التناقض بين القولين .

والحاصل أن قولنا « لا رجل » أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا : « لا رجل » مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفي ، ولأجل أن كل واحد منهما يفيد العموم قرئ ﴿ لا ريب فيه ﴾^(٢) . بالقراءتين ، وكذا قوله : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ﴾^(٣) . ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا : « لا إله إلا الله » .

(١) لقمان (٢٥/٣١) والزمر (٣٨/٣٩) . البقرة (١٩٧/٢) .

(٢) البقرة (٢/٢)

البحث السادس

من الناس من يقول : ان تصور الاثبات مقدم على تصور النفي ،
بدليل ان الواحد منا يمكنه أن يتصور الاثبات وإن لم يخطر بباله معنى النفي
والعدم ، ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصور أولاً الاثبات ،
وذلك لأن العدم المطلق غير معقول ، بل العدم لا يعقل إلا إذا أُضيف إلى
معين ، فيقال : عدم الدار ، وعدم الغلام ، فثبت أن تصور الاثبات أصل
ومتقدم ، وتصور النفي متأخر وفرع . وإذا ثبت هذا فما السبب في ان جعل
النفي الذي هو الفرع متقدماً ، والاثبات الذي هو الأصل مؤخراً ؟

والجواب : ان في تقديم النفي ههنا على الاثبات أغراضاً :

الأول : ان نفي الربوبية عن غيره ثم إثباتها له أكد في الإثبات من
اثباتها له من غير نفيها عن غيره ، كما أن قول القائل : ليس في البلد عالم غير
فلان أقوى في باب المدح من قولنا : فلان عالم البلد .

الثاني : أن لكل انسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد لا يتسع باشتغال
شيئين دفعة واحدة ، فبقدر ما يبقى مشغولاً بأحد الشيئين يبقى محروماً من
الشيء الثاني ، فقولنا : « لا إله إلا الله » إخراج لكل ما سوى الله عن
القلب ، حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ، ثم خطر فيه
سلطان الله ، أشرق نوره اشراقاً تاماً ، وكمل استيلاؤه عليه كملاً قوياً .

الثالث : أن النهي الحاصل بـ « لا » يجري مجرى الطهارة ، والاثبات
الحاصل بـ « الا » يجري مجرى الطهارة والصلاة ، فكما أن الطهارة مقدمة على
الصلاة ، فكذا وجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلا الله) ، ويجري مجرى
تقديم الاستعاذة على القراءة ، فكما أن الاستعاذة مقدمة على قراءة القرآن ،
فكذا هذا .

وأيضاً : ان من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليه أن يقدم تطهير
ذلك البيت عن الأقدار ، فكذا هنا . وعن هذا قال المحققون : النصف

الأول من هذه الكلمة تنظيف الأسرار ، والنصف الثاني جلاله الأنوار^(١) .
عن حضرة الملك الجبار . . والنصف الأول انفصال ، والنصف الثاني
اتصال . . والنصف الأول اشارة الى قوله : ﴿ ففروا الى الله ﴾^(٢) . والنصف
الثاني اشارة الى قوله : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم ﴾^(٣) .

البحث السابع

ان للقائل أن يقول : ان من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً ،
موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية ، من الصفات السلبية والثبوتية ،
فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ، ثم أن علمه بعدم الإله الثاني لا يزيده علماً
بحقيقة ذات الإله وصفاته ، لأن عدم الإله الثاني ليس عبارة عن وجود الإله
الأول ، ولا [وجود] صفات من صفاته ، ثم إنا أجمعنا على أن علمه بذات
الإله وصفاته لا يكفي في تحقق النجاة ، بل ما لم يعلم عدم الإله الثاني لا
يحصل العلم المعتبر^(٤) في النجاة ، فما السبب في ان كانت معرفة ذات الله
تعالى وصفاته غير كافية في تحقق النجاة ، بل كان العلم بعدم الثاني معتبراً في
تحقق النجاة ؟

والجواب : أنه بتقدير أن يكون للعالم إلهان^(٥) فالعبد لا يعلم أنه عبد

(١) ومعنى هذا (تجلي الأنوار) .

(٢) الذاريات (٥٠ / ٥١) ففروا الى الله أي الجأوا اليه . راجع البحر المحيط (٤٢ / ٨) والقرطبي
(٥٣ / ١٧) .

(٣) الأنعام (٩١ / ٦) .

(٤) علم المعتبر (٥) .

(٥) وهذه الوسواس تحدث للمشرك والذي ينفق أوقاته في اللهو والمجادلة بغير علم أو فقه ، وكثير
من يخوضون في هذه القضايا الفلسفية يضلون طريق التوحيد ويجدون أنفسهم فجأة في نطاق
الشرك وبالله الاستعاذة منه ، وكثيراً ما حذرت من اقحام قضايا الغيب والتوحيد في مجالات
المتافيزيقا وهيئات سامع . المحقق .

لهذا الإله أو عبد لذلك الإله ، أو عبد لهما معاً ، فحيثُ لا يكون جازماً بكونه مشغلاً بشكر مولاه وخالقه ، بل يجوز أن يكون عابداً لغير خالقه ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية ، وتلك الطاعة ، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد ، فحيثُ يكون جازماً بكونه مشغلاً بعبودية مولاه وخالقه ، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد .

البحث الثامن

ان المكلف إذا تم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه : لا إله إلا الله ، فهنا لا شك في أنه يموت مؤمناً ، لأنه أدى ما وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة ، فأما إذا تم النظر والاستدلال في معرفة الله ، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه « لا إله إلا الله » ، ثم لم يقل ، ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا ؟

من الناس من قال : انه مات كافراً ، لأن صحة الإيمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه . ومن الناس من قال : انه مؤمن ، لأجل انه حصل له العرفان التام ، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة وما ذكرها . والدليل على أنه مؤمن قوله عليه [الصلاة و] السلام : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان »^(١) . فهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟

البحث التاسع

من الناس من قال : تطويل المدة من كلمة (لا) من قولنا : لا إله

(١) الحديث أخرجه الطبراني .

إلا الله ، مندوب اليه مستحسن ، لأن المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد^(١) وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله : إلا الله ، فيكون ذلك أقرب الى الإخلاص والكمال .

ومنهم من قال : بل يترك التمديد أولى ، لأنه ربما مات في زمان اللفظ بـ « لا » قبل الانتقال الى كلمة « إلا الله » .

والذي عندي : ان المتلفظ بهذه الكلمة ان كان يتلفظ بها ليتنقل من الكفر الى الإيمان فترك التمديد أولى ، حتى يحصل الانتقال من الكفر الى الإيمان على أسرع الوجوه . وإن كان المتلفظ بها مؤمناً ، وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة ، فالتمديد أولى ، حتى يحصل في زمان التمديد صور الأنداد والأضداد . وعلى التفصيل في الخاطر ، ثم ينفيها ، ويعقبها بقوله (إلا الله) . فيكون الاقرار بالإلهية أصفى وأكمل .

البحث العاشر

أن الناس في هذه الكلمة على مذاهب^(٢) . وطبقات :

فأدناها طبقة من قالها ليحقن دمه ، ويحرز ماله ، وعلى ما اقتضاه موجب قوله عليه [الصلاة و] السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون . فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها ، وأحرز حظاً من فوائدها ، فإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها ، والسلامة من آفاتنا ، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السعادة في الدارين^(٣) .

(١) الأنداد : الأشباه والنظائر .

(٢) آراء (هامش ج) من نسخة ثانية .

(٣) نحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر .

والطبقة الثانية : الذين ضموا الى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد . واعلم ان الاعتقاد لا يكون علماً ، لأن العقد ضد الانحلال والانسراح ، والعلم عبارة عن انسراح الصدر . قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾^(٣) . فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عالماً ولا عارفاً ، وهل يكون مسلماً ؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة ، والله أعلم .

الطبقة الثالثة : الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية القوية لذلك الاعتقاد ، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية ، بل اقناعية ظنية .

الطبقة الرابعة : الذين سلموا واثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية ، إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات^(٢) ، ولا من أصحاب مطالعة الآيات .

ثم اعلم ان الإقرار باللسان درجة واحدة ، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ، ودوامه وعدم دوامه ، وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها ، فإن المقلد ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد ، وربما زاد عليه وكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم قادر عالم .

واعلم أنه كلما كان وقوف الانسان على هذه المطالب أكثر ، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر ، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب ، وحصل له وقوف على هذه المباحث ، مال الى العلم ، وترك التقليد ، فيعسر عليه التقليد . أما المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الاقناعية ، فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة . وأما المرتبة الرابعة وهي : الترقى من الدلائل الاقناعية الى البراهين القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين الى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة ، ونهاية

(١) الزمر (٢٢/٣٩) راجع تفسير الطبري (١٣٤/٢٣) ومختصر ابن كثير (٢١٧/٣) .

(٢) أرباب المشاهدات والمكاشفات ، أصحابها ويقصد بهم الصوفية .

الندرة ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين ، واستعمالها في المطالب ، وذلك في غاية العزة . وأما المرتبة الخامسة وهي [مرتبة] أهل المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم الى اصحاب البراهين القطعية كنسبة اصحاب البراهين القطعية الى عوام الخلق .

واعلم ان عالم المكاشفات لا نهاية^(١) له ، لأنه عبارة عن سفر العقل في مقامات الجلال الإلهي ، ومدارج عظمتة ، ومنازل كبريائه وقده ، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات .

واعلم ان الإنسان إذا انكشفت له اسرار « لا إله إلا الله » أقبل على الله ، وأخلص في عبادته ، ولم يلتفت الى أحد سواه ، فلا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه ، ولا يرى النفع والضراء إلا منه ، فانقطع بالكلية عمن دونه ، وتبرأ من الشرك الباطن ، كما تبرأ من الشرك الظاهر^(٢) ، وذلك كله موجب كلمة التوحيد .

ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ : ﴿ فاعلم انه لا إله إلا الله ﴾^(٣) . قال بعده : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾^(٤) . والمعنى - والله أعلم - : ان الأمر بالاستغفار لتقصير وقع في موجب كلمة « لا إله إلا الله » . اما لغفلة تحول دونه ، أو لعارض شغل عنه ، وهو معنى قوله عليه [الصلاة و] السلام : « انه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »^(٥) . وقد روي « مائة مرة » . وفي الحديث وجوه :

الأول : ان المراد بالغين : ما يغشي قلبه من غفلة ، أو يعرض من

(١) وهذا يجعلني أقطع بأن الفخر الرازي كان صوفياً إذ أنه يؤيد ما أضفى الصوفية على أنفسهم من صفات وفيوضات وهي مسائل تعرضت اليها بالتحليل والبحث والدراسة والمناقشة واثبتت مخالفة هذه الأشياء للسنة الصحيحة راجع - إن شئت - كتابنا لماذا يلحدون ١٩ المحقق .

(٢) كما قد تبرأ (ج)

(٣) و(٤) محمد (١٩ / ٤٧) .

(٥) أخرجه الترمذي .

فترة^(١) ، بحكم الطبع البشري ، فكان عند ذلك يفرع الى الاستغفار .

الثاني : انه كان عليه [الصلاة و] السلام أبداً في الترقى ، فإذا انتقل الى درجة أعلى من الدرجة المنتقل عنها كان يستحقها في العبودية ، فكان يستغفر الله منها .

الثالث : أنه ربما لاح له شيء من تجلي عالم الغيب ، فيستعظم تلك الدرجة ، ويستبهج بها ، ثم يصير تعاضمه لها ، وابتهاجه بها ، شاغلاً عن الاستغراق في المبتهج به^(٢) ، فكان يستغفر الله من ذلك .

الرابع : ان كل ما لاح له من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له انما لاح له بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة الى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم ، فحينئذ يعلم ان الذي لاح له من كمال الغيب بالنسبة الى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة الى الوجود ، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل اليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره .

(١) وهذه لمحات خاطفة لإثبات بشريته ﷺ وليست دليلاً على غفلة ، فإن رسول الله ﷺ كان نومه الإغفاء وإذا نامت عيناه لم ينم قلبه .

(٢) وقد يدفع ذلك الى الفتنة والله وحده هو العاصم من مزالق الخطأ .

الفصل السادس

في

فضل المؤمن

اعلم ان الله سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة مواضع^(١) : في المراقبة ، والولاية ، والموالة ، والصلاة ، والعزة ، والطاعة ، والمشاقة ، والأذى ، والألتجاء ، والشهادة .

المقام الأول : في المراقبة

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾^(٢) . هدد المذنبين برؤية المؤمنين أعمالهم ، كما هددهم برؤية نفسه [ورؤية رسوله] . وفيه لطائف :

الأولى : روي أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة ، فسمع امرأة تقول لابنتها : يا ابتاه ، قومي فامزجي اللبن بالماء . فقالت ابنتها : أوليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين ؟ قالت : لا يرانا أمير المؤمنين . قالت : أفلا يرانا رب العالمين ؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه ، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها .

الثانية : امرأة شاطرة كانت بمكة ، قالت : لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني^(٣) . ، وكان رجلاً جميلاً ، فعرضت نفسها عليه مراراً حتى ظنت أنها

(١) عشر أشياء (هامش د) من نسخة ثانية .

(٢) التوبة (١٠٥/٩) .

(٣) من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما وقد توفي سنة ٤١ هـ .

تعجبه ، فقال طاووس : احضري الليلة ، فجاء بها الى المقام فقال لها : اضطجعي هنا . فقالت : سبحان الله ، ألا يرانا الناس ؟ فقال طاووس : أليس يرانا الله في كل مكان ؟ فتابت .

الثالثة : قال أبو عبد الرحمن العتبي : خرجت ليلة فإذا أنا بجارية جميلة ، فأردتها ، فقالت : ويلك ، أما لك من زاجر من عقل إن لم يكن لك ناهٍ من الدين ؟ فقلت لها : لا يرانا إلا الكواكب . فقالت : وأين مكوبها ؟

الرابعة : قال حاتم الأصم^(١) . : راع نفسك في ثلاثة أوقات : إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله اليك ، وإذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله لك ، وإذا كنت ساكناً فاذكر علم الله فيك ، لأنه قال : ﴿ انني معكما أسمع وأرى ﴾^(٢) .

الخامسة : ثلاثة أنفار حضروا عند بعض الزهاد ، وقالوا : أوصنا . فقال لواحد : أأست تقول : انه عالم ؟ فقال : بلى : قال : إياك أن يعلم منك شيئاً فيفضحك به غداً . وقال للثاني : اليس هو بصير ؟ قال : بلى . قال : إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة . وقال للثالث : أليس هو سميع ؟ قال : بلى . قال : احذر أن يسمع منك شيئاً يردك عن باب رحمته بسببه .

السادسة : قال سفيان : من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة : الهيبة للعزیز الجبار ، والحرمة للنبي المختار ، والحياء من الأبرار والأخيار .

المقام الثاني : الولاية

فإنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فقال : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله

(١) كان رجلاً تقياً ورعاً زاهداً مستجاب الدعوة وقد توفي رحمه الله عام سنة ٢٣٠ هـ .

(٢) طه (٤٦ / ٢٠)

والذين آمنوا ﴿١﴾ . قيل : نزلت في عبد الله بن سلام حين شكا من عداوة اليهود له بعد إسلامه ، فنزلت . وقال محمد بن إسحاق : نزلت في عبادة بن الصامت ، قال : يا رسول الله ، تبرأت من حلف اليهود ، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة ، وفيه نكت :

الأولى : أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ أنت وليي في الدنيا والآخرة ﴾ ﴿٢﴾ . فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قائله ، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ . فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة .

الثانية : قوله : ﴿ إنما وليكم الله ﴾ يعني حافظكم وناصركم ﴿ ورسوله والذين آمنوا ﴾ . ثم قال عليه [الصلاة و] السلام : « المرء مع من أحب » . ثم أن كل مسلم يحب الله ، فوجب بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه ، بسبب أنه أحب الله ، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره ؟

الثالثة : هذه الآية دلت على أن الصحابة يحبوننا ، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أولياءنا ، وهو قوله : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ الذين يقيمون الصلاة ﴿٣﴾ . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ ﴿٤﴾ . ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ﴾ ﴿٥﴾ . فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة بيننا وبين الصحابة ، والحب لا يرضى بعذاب

(١) المائدة (٥٥/٥) .

(٢) يوسف (١٠١/١٢) .

(٣) المائدة (٥٥/٥) .

(٤) التوبة (٧١/٩) .

(٥) التوبة (١٠٠/٩) .

حبيبه ، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين .

المقام الثالث : الموالاة

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .
وههنا نكت :

الأولى : حكم أن مولى المؤمنين هو : الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين ، فقال : ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ﴾^(٢) . وقال في حق الكافرين : ﴿ مأواكم النار ، هي مولاكم ﴾^(٣) . ثم قال : ﴿ وبئس المصير ﴾^(٤) . فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا يخزي ، ومن كان المؤمنون مولاه فلا يضيع ولا يشقى . قال الكفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أحد : لنا عزى ولا عزى لكم . فقال عمر رضي الله عنه : « لنا مولى ولا مولى لكم » . فنزل على وفق قوله : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم ﴾^(٥) .

الثانية : ان الله تعالى سمي النار مولى الكافرين ، فقال : ﴿ النار هي مولاكم ﴾ . وإنما سمي النار مولاهم لأنها لا تترك اعانتهم .

الثالثة : قال بعضهم : من كان ربه مولاه لا يعذب ، ومن كان ناصره مولاه لا يغلب ، ومن كان هاديه مولاه لا يضل ، ومن كان ربه مغنيه لا

(١) التحريم (٤/٦٦)

(٢) الحج (٧٨/٢٢)

(٣) الحديد (١٥/٥٧)

(٤) الحديد (١٥/٥٧)

(٥) محمد (١١/٤٧) .

يشقى ، ومن كان ربه مولاه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد .

المقام الرابع : الصلاة

قال الله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾^(١) . فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه [الصلاة و] السلام . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه [الصلاة و] السلام : « هتوني ، هتوني » . فقالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فما حظنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾^(٢) . والإشارة : أنه صلى على الرسول عليه السلام في الدنيا ، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضاً عليهم ، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة .

الثانية : الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة . فالعامة قوله : ﴿ هو الذي يصلي عليكم ﴾ . والخاصة قوله : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾^(٣) . وخاصة الخاصة قوله : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ .

الثالثة : جعل الله أهل بيت النبي عليه [الصلاة و] السلام مساوين له في خمسة أشياء : في المحبة ، قال تعالى : ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾^(٤) . وقال لأهل بيته : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾^(٥) . والثاني : في تحريم الصدقة . قال عليه [الصلاة و] السلام : « حرمت الصدقة عليّ

(١) الأحزاب (٥٦/٣٣) .

(٢) الأحزاب (٤٣/٣٣) . راجع مختصر ابن كثير (١٠١/٣) .

(٣) البقرة (١٥٧/٢) .

(٤) آل عمران (٣١/٣) .

(٥) الشورى (٢٣/٤٢) .

وعلى آل بيتي » . والثالث في الطهارة قال الله تعالى : ﴿ ما نزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى ﴾^(١) . وقال لأهل بيته : ﴿ ويطهركم تطهيراً ﴾^(٢)

الرابعة : السلام . قال : ﴿ السلام عليك ايها النبي ﴾ . وقال في أهل بيته : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾^(٣)

الخامسة : في الصلاة على الرسول وعلى آله كما في آخر التشهد .

المقام الخامس : العزة

قال الله تعالى : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ﴾^(٤) . وههنا نكت :

الأولى : عزة الله عزة الربوبية ، وعزة الرسول عزة النبوة ، وعزة المؤمنين عزة التلفظ بكلمة « لا إله إلا الله » . ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لا يقبلان الذل ، فكذلك عزة المؤمنين لا تقبل الذل .

الثانية : لله عزة الانشاء والتكوين ، قال الله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾^(٥) . وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فأنشق بركة دعائه ، وللمؤمنين عزة الإيمان والشهادة . ثم أن الأشياء تكونت عند قوله : ﴿ كن ﴾ . والقمر انشق عند دعاء الرسول ، فخرجوا أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة .

(١) طه (٢/٢٠ ، ٣) .

(٢) الأحزاب (٣٣/٣٣)

(٣) الصافات (٣٧/١٣٠) .

(٤) المنافقون (٨/٦٣) . راجع تفسير القرطبي (١٢٩/١٨) .

(٥) يس (٨٢/٣٦) راجع الطبري (٢١/٢٣) .

الثالثة : عز المؤمن في أن قيده المعرفة ، وصيده الجنة ، وعبدته الرؤية ، فإذا كان للعبد المؤمن رب كافٍ ، وكتاب شافٍ ، ورسول وافٍ ، اسمه اسم الله ، ولسانه شاهد الله ، ونفسه طالبة مرضاة الله ، وقلبه محل نظر الله ، وسراجه معرفة الله ، وشهادته محبة الله ، وبصيرته مشتاقة الى رؤية الله فحقيق^(١) أن يكون عزه متصلاً بعز الله .

الرابعة : لله العزة سواء أوجد أو أعدم ، وللرسول بالولاية سواء بلغ أو سكت ، فكذلك المؤمن له العزة سواء أطاع أو عصي .

الخامسة : لله العزة بالولاية ، لقوله : ﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾^(٢) . وللرسول بالولاية أيضاً لقوله : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾^(٣) . وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾^(٤) .

السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾^(٥) . وللرسول بالرفعة ، لقوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾^(٦) وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾^(٧) .

والسابعة : لله عزة المعبودية ، لقوله : ﴿ وأنا ربكم فأعبدون ﴾^(٨) . وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾^(٩) . وللمؤمنين

(١) حقيق : جدير به وخلق أن يكون . (٩) الأعراف (١٥٨/٧) .

(٢) الأعراف (١٩٦/٧) .

(٣) الأحزاب (٣٣) / ٦ .

(٤) التوبة (٧١/٩) .

(٥) البقرة (٢٥٥/٢) .

(٦) الشرح (٤/٩٤) وقال ابن كثير رفعنا لك ذكرك أي أنه يذكر الله سبحانه وتعالى يذكر معه رسوله ﷺ راجع مختصر ابن كثير (٦٥٢/٣) بتصرف والبحر المحيط (٤٨٨/٨) .

(٧) الزمر (٥٣/٣٩) وغفران الذنوب جميعاً هنا لمن تاب منها ورجع عنها وليست لمن أصر عليها . راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣٧٦/٣) .

(٨) الأنبياء (٩٢/٢١)

عزة العبودية ، لقوله : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (١) .

الثامنة : لله عز الاستغناء : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ (٢) .
وللرسول عز الاغناء : ﴿ ووجدك عائلاً فأغني ﴾ (٣) . وللمؤمنين عز الاغناء :
﴿ وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ (٤)

التاسعة : قال علي رضي الله عنه : من أراد عزاً بغير ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسباً بغير نسب ، فليخرج نفسه من ذل المعصية الى عز الطاعة .

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار : من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟ فقال : أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء .

المقام السادس : الطاعة

قال الله تعالى : ﴿ اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (٥) . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ، وقال : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » (٦) . وقال عليه [الصلاة و] السلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١) الزمر (٥٣/٣٩) .

(٢) محمد (٣٨/٤٧) .

(٣) الضحى (٨/٩٣) .

(٤) النساء (١٣٠/٤) .

(٥) النساء (٥٩/٤) .

(٦) أخرجه أبو داود عن أبي موسى .

الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ»^(١) . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»^(٢) . وكل ذلك يدل على أنه كما تجب طاعة الله وطاعة الرسول ، فكذلك تجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين .

الثانية : قيل : بقاء الدنيا بسيف الأُمراء أو لسان العلماء ، فعليك بطاعتها إلا في معصية الله .

المقام السابع : المشاقة

قال الله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾^(٣) . الآية . وههنا نكت :

الأولى : لله بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له معتصم يتمسك به ، فجعل التوحيد سبباً للنجاة من البدعة ، لقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾^(٤) . وجعل الإجماع سبباً للنجاة من الفتن ، لقوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ . ثم قال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ .

الثانية : قال عليه [الصلاة و] السلام : « سبع من الهدى ، وفيهن الجماعة ، من خرج منهن فقد خرج من الجماعة : لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك ، وأتركوا سرائرهم إلى الله . وصلوا على من مات من أهل القبلة . وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر . وجاهدوا مع كل خليفة . ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف . وادعوا لهم

(١) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه الشيخان عن أنس .

(٣) النساء (٤ / ١١٥) .

(٤) آل عمران (٣ / ١٠٣) .

بالصلاح ولا تدعوا عليهم . وجانبوا الأهواء كلها ، فإن أولها وآخرها باطل » .

الثالثة : سئل واحد عن القلب السليم فقال : هو الذي دينه بلا شك ، ومذهبه بلا هوى ، وعمله بلا رياء ، وبدنه بلا خصم .

المقام الثامن : في الأذى

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة واعد لهم عذاباً مهيناً . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾^(١) .

اعلم أن الله تعالى نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله ، ثم أكد ذلك فقال : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾^(٢) . وقال : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾^(٣) . وقال عليه [الصلاة و] السلام : « المؤمنون قوم بررة ، هم المتحابون المتباذلون . والمنافقون قوم فجرة ، هم المتقاطعون المتدابرون »^(٤) . وقال عليه [الصلاة و] السلام لعائشة رضي الله عنها : « إن الله ييغض الفاحش والمتفحش »^(٥) . وفيه نكت :

الأولى : قال الله تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾^(٦) . ولم يقل : ويلعنونهم ويؤذونهم .

(١) الأحزاب (٥٧/٣٣ ، ٥٨) .

(٢) البقرة (٨٣/٢) .

(٣) الفرقان (٦٣/٣٥) .

(٤) لم أجد صيغة هذا الحديث في ما بين يدي من مراجع .

(٥) أخرجه الإمام الطبراني .

(٦) غافر (٧/٤٠) .

الثانية : قال عليه [الصلاة و] السلام : « إن الله رفيق يحب الرفقاء »^(١) .

الثالثة : عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك فقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾^(٢) . ولم يقل : أعداء بعض . وقال ابن عمر رضي الله عنه « إذا لعن العبد دابة تقول الدابة : لعن الله أعصانا لربه » .

الرابعة : قال تعالى لرسوله : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك ، فأعف عنهم واستغفر لهم ﴾^(٣) . وقال : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾^(٤) . ونهى عن الهمز واللمز فقال : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾^(٥) . وقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ﴾^(٦) . وقال لموسى وهارون : ﴿ فقولاً له قولاً لنا ﴾^(٧) . وقال تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكي ﴾^(٨) .

المقام التاسع : الالتجاء

قال الله تعالى : ﴿ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾^(٩) . فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في ذلك بالمؤمنين ، لأن

(١) لم أقف على مصدر يروي هذا الحديث في ماتوفر لدي من مراجع .

(٢) التوبة (٧١/٩) .

(٣) آل عمران (١٥٩/٣)

(٤) الأعراف (١٩٩/٧) .

(٥) الهمزة (١/١٠٤) .

(٦) القلم (١٠/٦٨ ، ١١)

(٧) طه (٤٤/٢٠) .

(٨) النازعات (١٨/٧٩) .

(٩) التوبة (١٦/٩) .

المنافقين كانوا يتولون اليهود ، ويتخذونهم وليجة وبطانة ، فعليك ان تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة . وفيه نكت :

الأولى : انه مدح ابراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكر عن حاطب بن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار فقال : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾^(١) .
وقال : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون ﴾^(٢) .

فسمى من يتولى الله ورسوله : « حزب الله » ثم قال : ﴿ ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(٣) .

الثانية : قال الواسطي : علامة المؤمن أربعة : لا يشكو من المصائب ، ولا يتخذ عمله رياء ، ويحتمل أذى خلقه ولا يكافئهم ، ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم^(٤) .

المقام العاشر : في الشهادة على التوحيد

السؤال الأول : هو ان الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ومن شهد لنفسه فإن تلك الشهادة لا تقبل في الفقه .

والجواب من وجوه :

الأول : أن هذا في الظاهر شهادة ، وفي المعنى اقرار ، واقرار المقر^(٥)

(١) المتحنة (١/٦٠) .

(٢) المجادلة (٢٢/٥٨) .

(٣) يونس (٦٢/١٠) .

(٤) وذلك بأن يعفو عن مسيئهم ، ويستغفر لمن ظلمه .

(٥) وإقرار المرء (هامش ٤) من نسخة ثانية .

على نفسه مقبول . وإنما قلنا : ان هذا اقرار ، لأنه لما ادعى الوجدانية في الألوهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ، ورزق العبيد على المولى لازم ، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والحفظ والنصرة ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾^(١) .

الثاني : ان الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة ، ثم ذلك القول لا يراد لكونه قولاً ، بل لكونه دالاً على ذلك المطلوب . فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة . ثم إن القول الدال لو كانت دلالة قطعية غير محتملة كان أولى بأن يكون شهادة . وإذا ثبت ذلك فجميع المخلوقات^(٢) دالة على وحدانية الله وإلهيته دلالة قطعية عقلية ، فكانت أولى بأن تكون شهادة ، فإذا شهد الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على الوجدانية قطعاً ، وأما شهادة الملائكة وأولي العلم فمعناها شهادة الاقرار والاعتراف ، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى .

الثالث : وهو أن كل مسألة يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن اثباتها بالدلائل السمعية، ومسألة الوجدانية كذلك ، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن اثبات ان الإله واحد بالدلائل السمعية^(٣) . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المقصود من هذه الشهادة ان يستدل بها على وحدانية الله تعالى .

السؤال الثاني : أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم ، فقال : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾^(٤) . ثم مدح نفسه ، واثني على نفسه ، فما السبب ؟

والجواب من وجوه :

الأول : وهو أنه حصل للواحد منا نوع فضيلة فذلك فضل الله

(١) هود (٦ / ١١) .

(٢) فجميع المخلوقات لله تعالى كانت دالة (ج) .

(٣) أي الحسية .

(٤) النجم (٣٢ / ٥٣) .

وكرمه ، والمستحق للثناء هو الله ، حيث أعطى تلك الفضيلة ، فلا جرم يقبح من الواحد منا أن يثني على نفسه . أما الحق سبحانه فإنه قد حصلت له صفات الكمال ، ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره ، فظهر الفرق .

الثاني من الفرق : أن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفك عن أضدادها ، فإن علمنا مشوب بالجهل ، وقدرتنا مشوبة بالضعف ، وملكنا لغرض الهلاك^(١) ، وبقاءنا لغرض الفناء^(٢) ، وحياتنا لغرض الموت ، وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها ، فإنه عالم بلا جهل ، وقادر بلا عجز ، وملك بلا زوال ، وبقاء بلا فناء ، وحياة بلا موت ، وعزة بلا ذل ، فظهر الفرق .

الثالث : ان الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه لأن العبد يقدم الدعوى على اظهار المعنى ، فأما سبحانه فإنه كان أظهر المعنى قبل الدعوى ، لأنه خلقتك ، وأعطاك الحياة والعقل ، وأنواع المنافع ، فإظهار الدعوى بعد إقامة البرهان على المعنى يكون مستحسنًا ، بخلاف حال العبد ، فإن أكثر أحواله يكون باظهار الدعوى مقدمة على اظهار المعنى^(٣) . والله أعلم .

الرابع : ان من أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما حال العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه ، إنما يحق مدح النفس لمن هو الأول والظاهر والباطن .

الخامس : ان حب الإنسان لنفسه غالب ، فإذا شرع في مدح النفس استولى ذلك عليه ، ثم ان ذلك يعميه ويصمه عن التنبيه لما فيه من المعاييب ، فيصير ذلك سبباً في بقاءه في ظلمات الحماقات^(٤) والجهالات . بخلاف الحق

(١) أي لغرض الاستعمال .

(٢) أي التحلل بالموت .

(٣) قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن أتقى ﴾ [النجم ٥٣/٣٢] راجع تفسير البحر المحيط (١٦٥/٨) .

(٤) ما أورده ثابت على هامش ج من نسخة ثانية

سبحانه وتعالى فإنه منزّه عن النقائص والافات ، فلا يصير مدحه لنفسه سبباً
لشيء من المعاييب والنقائص .

السؤال الثالث : لما شهد لنفسه بالوحدانية ، فأى حاجة مع حصول
شهادته الى شهادة الملائكة وأولي العلم ، وما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد
شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولي العلم ؟

والجواب من وجهين :

الأول : روي أنه عليه [الصلاة و] السلام كان يمشي خلف جنازة ،
فقال واحد : هذا الميت كان رجلاً صالحاً ، فقال عليه [الصلاة و] السلام :
« واحد . وقال الثاني والثالث كذلك ، فقال : اثنان ، ثلاثة . فلما قال الرابع
مثل ذلك ، قال : وجبت . فقيل : يا رسول الله ، وما التي وجبت ؟ فقال :
وجبت مغفرته في كرم الله تعالى والجنة »^(١) . لأن المؤمنين شهود الله تعالى
على وحدانيته ، لو لم تقبل شهادتهم هنا لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير
مقبولة ، وهو حكيم لا يفعل ذلك . وإذا عرفت هذا فنقول : الله تعالى لما
جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته ، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت
شهادتهم مردودة^(٢) ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم . فلما جعلهم في هذه
الآية شهوداً على وحدانيته دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم
القيامة ، اللهم حقق رجاءنا بكرمك .

الثاني : انه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا
المطلوب على شهادتهم ، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل
ما وصل اليهم من نهي وأمره وخبره ، والمقصود اظهار شرفهم في كونهم
موافقين لله في هذه الشهادة ، لا توقيف المطلوب على شهادتهم .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تكرير « لا إله إلا الله » في «شهد

(١) كلمة الجنة مأخوذة من هامش (ج) من نسخة ثانية .

(٢) لأن الفساق شهادتهم مردودة .

الله ﷻ الآية ؟

والجواب من وجود:

الأول : ان المقصود من التكرار التنبيه على ان الانسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره .

الثاني : أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وآخره ، حتى يكون في الدنيا سعيداً ، وفي الآخرة حميداً .

الثالث : إن إحدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق^(١) .
والثانية بعد خلقهم .

الرابع : أنه ذكر إحدى هاتين الشهادتين عن نفسه ، والأخرى عن خلقه^(٢) .

(١) لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٢]

(٢) المقصود (خلقه) أولوا العلم منهم ، لأنهم أعرف بالله ممن عداهم .

الفصل السابع

في

الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم ان الإيمان لا بد له من أمرين : أحدهما هو : ان الأصل حصول المعرفة بالقلب ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾^(١) . وثانيها : الاقرار باللسان وبالتوحيد ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾^(٢) . وذلك لأن قوله : ﴿ قل ﴾ أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ، ثم أكد هذه الدلالة بالسنة الغراء ، وهي قوله عليه [الصلاة و] السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

والسبب في انه لا بد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاماً ، بعضها يتعلق بالباطن ، وبعضها بالظاهر ، فما يتعلق بالباطن ، هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا ، ولا يمكن إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم ، ولا معرفة إلا بالقول باللسان ، فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى ، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق ، واليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾^(٣) . وقال عليه [الصلاة و] السلام : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » وقال تعالى : ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾^(٤) . جنة في الوقت وهي جنة المعرفة ، وجنة في العقبى^(٥) وهي جنة الآخرة .

(١) محمد (١٩ / ٤٧) راجع التفسير الكبير (٥٨ / ٢٨) .

(٢) الإخلاص (١ / ١١٢) .

(٣) البقرة (٢٢١ / ٢)

(٤) الرحمن (٤٦ / ٥٥) .

(٥) في الأصل (عدا) والوارد هنا مأخوذ من نسخة ثانية هامش (ج) .

واختلف المحققون ، فقال الأكثرون : الأولى أن يكون الذكر في الابتداء قول : لا إله إلا الله . وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة : الله ، ومنهم من واطب في الابتداء والانهاء على ذكر لا إله إلا الله ، وحجة هؤلاء : ان عالم القلب مشحون بغير الله ، فلا بد من النفي لنفي الأغيار^(١) ، فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع منبر التوحيد ، ويجلس على سلطان المعرفة .

وأما الذين اكتفوا في الانتهاء بكلمة (الله) فلهم في ذلك وجوه :

الحجة الأولى : ان نفي الغيب عدم .

الحجة الثانية : من قال : لا إله إلا الله ، فلعله حين ذكر كلمة النفي لا يجد من المهلة ما يصل فيه الى الإثبات ، فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل الى الإثبات ، وفي الجحود غير منتقل الى الاقرار .

الحجة الثالثة : ان المواظبة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق ، ينفي الأغيار ، إلا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال ، والاشتغال في الأغيار يرجع في الحقيقة الى شغل القلب بالأغيار ، وذلك يمنع من الاستغراق في نور التوحيد ، فمن قال : « لا إله إلا الله » فهو مشغول بغير الحق [وبالحق] . ومن قال : الله ، فهو مشغول بالحق [وحده] . فأين أحد المقامين من الآخر ؟

الحجة الرابعة : أن نفي الشيء إنما يحتاج اليه عند خطور ذلك الشيء بالبال ، وخطور ذلك الشيء بالبال لا يكون إلا عند نقصان الحال ، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك فقد امتنع أن يكلفوا بنفي الشريك ، بل لا يخطر ببالهم ولا يجري في خيالهم إلا ذكر الله ، فلا جرم يكفيهم أن يقولوا : الله .

(١) معنى الأغيار أي ما هو غير الله سبحانه وتعالى ، وهو جمع مفردة غير .

الحجة الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾^(١) . فأمره بذكر الله ، ومنعه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم ، والقول بالشريك^(٢) من الأباطيل واللعب ، ونفيه خوض في ذلك الكلام ، فكان الأولى الاقتصار على قولنا (الله) .

فهذا ما في هذا المقام .

وهنا أنواع من التضرعات :

أحدها : أن نقول : إلهنا ، أن موسى عليه السلام سأل أجل الأشياء فقال : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾^(٣) . وسأل أقل الأشياء فقال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾^(٤) . فنحن أيضاً نسألك أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة ، وأقلها وهو خيرات الدنيا ، فنقول : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾^(٥) .

وثانيها : يحكى أن رجلاً باع جارية ، ثم ندم ، واستحيا من المشتري أن يظهر هذه الحالة ، فكتب في كفه حاجته ورفعها الى السماء ، فرأى المشتري في المنام : ان فلاناً من أحبائه الله ، وقلبه معلق^(٦) بهذه الجارية ، فردها عليه ، وأجره على الله . فلما أصبح الرجل حمل الجارية اليه ، وردّها عليه . فأراد البائع أن يرد الذهب ، فقال المشتري : ان لهذا الثمن ضامناً ، وهو خير منك . . . الهنا ، إن كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية ، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا ، وإذا كان ذلك البائع قد استحي من العود ، فنحن من كثرة ذنوبنا نستحي منك ، وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً

(١) الأنعام (٩١/٦) . راجع الطبري (٥٢٧/١١) .

(٢) يريد بهذا القول من المشرك لا من المؤمن المقر بالتوحيد .

(٣) الأعراف (١٤٣/٧) .

(٤) القصص (٢٤/٢٨) .

(٥) البقرة (٢٠١/٢) .

(٦) مشغل (ج) .

من حاجته ورفعها الى السماء ، فجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا الى رحمتك ، وذلنا بين يديك . . . إلهنا ، كما ضمنت دين الغرماء فاقبل ديننا ، وأسقط عنا تبعات أعمالنا ، وافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، يا من لا يشغله شأن عن شأن .

ثالثها : يروى ان الصديق رضي الله عنه كان يخافت في صلاته بالليل ، ولا يرفع صوته بالقراءة ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها ، فسأل رسول الله ﷺ أبا بكر عن فعله فقال : من أناجيه يسمع كلامي . وسأل عمر فقال : أوقظ الوسنان^(١) ، وأطرد الشيطان ، وأرضي^(٢) الرحمن ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر برفع صوته قليلاً ، وأمر عمر بخفضه قليلاً . . . إلهنا ، الإيمان فينا كالرسول والقلب مثل أبي بكر ، واللسان مثل عمر ، فالقلب يخافت بالذكر كأبي بكر ، واللسان يظهر الذكر كعمر ، والإيمان يأمر القلب بالزيادة في الذكر ، ويأمر اللسان بإخفاء الذكر ، فوفقنا لما تحب وترضي بفضلك يا أكرم الأكرمين

(١) الوسنان : النائم .

(٢) باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فصل

روى الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله ، واني رسول الله ، يرجع ذلك الى قلب موقن ، ألا غفر الله له »^(١) . قال الشيخ : فهذه شهادة شهد بها عند الموت ، وقد ماتت نفسه من الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه ، وألقى نفسه بين يدي رب العزة ، وقدرة رب العالمين ، فاستوى منه الظاهر والباطن^(٢) . فلقى الله مخلصاً بتلك الشهادة ، فغفر الله له بتلك الشهادة التي وافق ظاهرها باطنها .

وأما الذي يقوله أيام الصحة فقولوه مع التخليط : لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات ، ونفسه أشرة بطرة ، فلا يستحق بذلك القول المغفرة . فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة في حالة الصحة ، وذكرها في آخر زمان الحياة .

وتمام القول فيه : ان الإنسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدينيه ، ومأسوراً في الشهوات ، يكون سكراناً عن الآخرة ، حيراناً عن الله ، لم يحصل فيه اليقين البتة^(٣) ، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله ، فلا يحصل فيه الميل إلى الله . أما إذا حصل في القلب اليقين بالله كان الأمر بخلاف ذلك ، وذلك

(١) راجع نواذر الأصول للحكيم الترمذي رضي الله عنه ص ٢١٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾ [ابراهيم ١٤ / ٢٧] . وقال أيضاً ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٦] راجع تفسير القرطبي (٢٨٦ / ١٦) .

(٣) وشرط اليقين بالشيء أن يثبت في القلب دون ما عداه .

لأن اليقين سمي يقيناً لاستقراره في القلب ، وهو النور . يقال : يقن الماء في الحفرة ، إذا استقر فيها . وإذا استقر النور دام ، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة^(١) ، فاطمأن القلب بجلال الله ، ثم انقطع عن غير الله ، فوقف هناك عاجزاً ، فاستغاث بالله صارخاً مضطراً ، فأجابه الحق ، فإنه يجيب دعوة المضطرين^(٢) . فتفرق ذلك النور المتلألئ في القلب ، فانمحقت به ظلمات الاشتغال بغير الله ، فيصير الملكوت مشاهداً له ، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ : « كأي أنظر الى عرش ربي بارزاً » . فقال له رسول الله ﷺ : « عبد نور الإيمان قلبه »^(٣) .

ومما يحقق ما قلناه قوله عليه [الصلاة و] السلام : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصدقاً بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقاً ، حتى ينظر الرب الى قائلها من أهل الدنيا » .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » . قيل : يا رسول الله ، وما أخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن المحارم^(٤) .

وقال عليه [الصلاة و] السلام : « أخلص يكفك القليل »^(٥) .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عهد إلي ألا يأتييني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة . قالوا : يا رسول الله ، وما الذي يخلط بها ؟ قال : حرصاً على الدنيا ، وجمعاً لها ،

(١) البصيرة هي رؤية القلب كما أن البصر هو مشاهدة النظر والعين .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل ٢٧/٦٢] راجع كشف الزمخشري (٢٩٧/٣) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم عن أنس .

(٤) أخرجه الطبراني .

(٥) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ومنعاً لها ، يقول بقول الأنبياء ، ويعمل عمل الجبارة ^(١) .

فالحاصل : انه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة ، حتى تكون نافعة ، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات ، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين : أحدهما : أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته ، والثاني : ان ماتت شهواته عند وفاته ، وعظم رجاؤه وخوفه من ربه ، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطراراً ، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة .

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة . قال عليه [الصلاة و] السلام : « لقنوا موتاكم » فإن الإنسان عند القرب من الموت تموت شهواته ، ويحصل له نور اليقين ^(٢) ، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه . وأما الأول وهو الذي يروض نفسه ، فقد فتح الله له روزنة الى الغيب ، فركبته أهوال سلطان الجلال ، فينطق بها عن القلب الصافي ، فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، م الحمد لله رب العالمين » . قالوا : يا رسول الله ، فكيف هي للحي ؟ قال : « هي أجود وأجود » ^(٣) . وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات : كلمات الفرج . فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج . وفيه زيادة : « لا إله إلا الله العلي العظيم » .

(١) أخرجه الطبراني .

(٢) وحال موت الإنسان وتجرده من شهوات الدنيا وهو مدبر عنها ينكشف خيال ناظره الأمر الملكوتي الغيبي . وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق]

[٢٢/٥٠] .

(٣) أخرجه الترمذي عن ابن عمر .

وعن مكحول : إن كلمات الفرج « لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك ، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا : لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » .

فصل

قال جعفر بن محمد الصادق : عجبت لمن أبتلي بأربع^(١) . : كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول : ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ . وأنه تعالى يقول : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾^(٢) . وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول ﴿ حسبي الله ونعم الوكيل ﴾ والله تعالى يقول : ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾^(٣) . وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول : ﴿ وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد ﴾ والله تعالى يقول : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾^(٤) . وعجبت لمن أصابه هم أو كرب لا يقول : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾^(٥) . فيقول الله : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ﴾^(٦) .

وقال سفيان بن عيينة : ان الله لما قال : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فقد وعد كل مؤمن يقول : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ . أن ينجيه من الغم . ومعلوم بالضرورة ان الله لا يخلف الميعاد .

(١) ثمنى أربعاً (على هامش ج) من نسخة أخرى .

(٢) الكهف (٣٩ / ١٨) .

(٣) آل عمران (١٧٣ / ٣ ، ١٧٤) .

(٤) غافر (٤٥ / ٤٠) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٨ / ١٥) .

(٥) الأنبياء (٨٧ / ٢١) . وما من إنسان يدعو بهذا الدعاء إلا فرج الله همه وعسره .

(٦) الأنبياء (٨٨ / ٢١) . راجع التفسير الكبير (٢١٥ / ٢٢ - ٢١٧) بتصرف .

فصل

في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى :

لما كان كل ما تتصور النفس فالله بخلافه ، فلم يتمكن العقل والنفس من الإشارة الى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هي هذه الحقيقة .

ويروى عن سهل بن عبد الله انه سُئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالاحاطة ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير احاطة ، ولا إدراك نهاية .

وروي عنه أيضاً أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والخيرة .

وقال الشبلي : من اشار اليه فهو ثنوي ، ومن كيفه فهو وثني ، ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما ميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾^(١) . قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته . من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة مقداره .

واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع :

(١) الأنعام (٩١/٦) . الحج (٧٤/٢٢) . الزمر (٦٧/٣٩) .

أولها : في سورة الأنعام ، ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾^(١) . فهؤلاء الذين قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ كانوا منكربين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافراً ، فقلوه : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ عائد الى هؤلاء .

وثانيها : قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . وما قدرُوا الله حق قدره ﴾^(٢) . فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام عائداً اليهم .

ثالثها : قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾^(٣) . ثم قال بعد هذا : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ . فيكون هذا الكلام عائداً الى الذين أشار اليهم قبل هذه الكلمة بقوله : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

وإذا ثبت هذا فقلوه : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ عائد في الأولى الى منكري النبوات ، وفي الثانية والثالثة الى عبدة الأوثان . فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به^(٤) .

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾^(٥) . واجيب عنه بأن قيل :

(١) الأنعام : (٩١/٦) .

(٢) الحج (٧٣/٢٢ ، ٧٤) .

(٣) الزمر (٦٤/٣٩ - ٦٦) .

(٤) ولعل الخطاب لجاحدي النبوات وهذا ما يوحى به السياق .

(٥) طه (١١٠/٢٠) .

لَمْ لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم . فالضمير في قوله تعالى : ﴿ به ﴾ لا يكون عائداً الى الله ، بل عائداً الى ما بين أيديهم وما خلفهم ، لأن عود الضمير الى اقرب المذكورين أولى .

واعلم ان العمدة في هذه المسألة ان الله سبحانه غير متناهٍ في الذات والصفات ، والعقل متناهٍ في الذات والصفات ، والمتناهي لا سبيل له الى ادراك غير المتناهي ، وهذه هي النكتة المستحسنة ، ونحن نشرحها لتظهر قوتها إن شاء الله فنقول :

الحجة الأولى

العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذلك متناهٍ ، مثلاً نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لحظة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره .

ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناهٍ ، والحق سبحانه إنما كان قديماً أزلياً^(١) لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها ، فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال اليه فالحق سبحانه ليس قديماً باعتبار أنه كان موجوداً في ذلك الوقت ، بل باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك ، فإذا لا سبيل للعقل البتة الى معرفة القدم والأزل . وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبدياً .

فإذا علم العقل لا سبيل له البتة الى معرفة كونه دائماً أبدياً على سبيل التفصيل ، فإن كل ما يشير العقل اليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود .

(١) أزليا : من غير ابتداء كما أن أبدياً من غير انتهاء أما سرمدياً فلا ابتداء له ولا انتهاء .

وأيضاً إذا قلنا : انه موجود ليس بجوهر ولا عرض ، ولا حال ولا محل ، فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى ، لأننا أردنا بقولنا : موجود ، ما يناقض عدم ، فهذا المفهوم .

طلب الآخرة وترك التزديد من الدنيا

وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة ، وعرضه لذلك ،
وصنه من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر الى الحرص والرغبة ، ولا تأذن
لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه ، وينطفئ نور القلب من أجله^(١) ،
وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصاً ، وخوف نفسك عقوبة ما
في يديك من الدنيا ، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر ، واستكثر ما
في يديك ، لما تعلم من ضعف شكوك ، فتشتغل النفس بما في يديها عن
الفكر في أمر الدنيا ، والمحبة للزيادة منها .

فإذا أجمعتها^(٢) . من ذكر الزيادة من الدنيا ، وحملتها على درجة الخوف
مما في يديها ، قنعت ورضيت ، وعفت^(٣) . عن طلب الدنيا بالحرص
والرغبة ، ورجعت الى الآخرة بالحرص عليها ، والرغبة فيها ، فإن النفس
مبنية على أساس الطمع .

ونخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعد الطمع .
أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا . وأما
الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة ،
بالحرص عليها ، والرغبة فيها .

(١) أي من أجل الجد في طلبه والحرص عليه ، وقديماً قيل من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب
بحرمانه هذا إن كان مرجواً إتيانه في أوان .

(٢) أجمعتها : إذا أرحتها .

(٣) عفت عن طلب الدنيا : زهدت في طلبها .

قيل لحكيم : فما آلة الطمع ، وجماع آفاته ؟

قال : الشره والحرص ، وهيجان الرغبة . فعلى أيها أوقعت طمعها
أحضرت أدواتها ، وجمعت آلتها ، وجدت في طلبها .

فإذا قهرت صاحبها^(١) . على موافقة هواها استعبده ، فأذهلته وأذله
وأدهشته وأتعبته ، وطيشته عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت^(٢) . مروءته ،
وفتنه عن دينه ، وإن كان عالماً لبيباً عاقلاً كيساً فطناً فصيحاً حكيماً فقيهاً لوثته
وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله وهو الأريب العالم الأديب ،
فصيرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً ، أحق خفيفاً .

وذلك أنها سقته من موافقة هواها كأساً سماً صرفاً ، فاستمالته ، فمال
بعلمه وعقله وفهمه ، ونفاذ حكمته وبصره ، فأجراه مجرى هوى نفسه ،
فعجلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها ، وأسقطته من
عين الله ، وأعين عباده من أهل البصائر ، وأخرت له أجل الندامة الطويلة
عند مفارقة الدنيا ، وفي عرصات القيامة .

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا ، وغلب بعقله هواها ،
رجعت بطمعها الى منازل الآخرة ، وأحضرت أدواتها^(٣) . واستعملت آلتها ،
فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها بنيت على الطمع .

فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيا ، وأقبلت على نفسها بالأياس من
المخلوقين^(٤) ، رجعت برغبتها وطمعها الى أسباب الآخرة ، فجدت في طلبها

(١) في الأصول (قهرت صاحبها العبد) وكلمة العبد زائدة لا قيمة لها وربما أوردها الناسخ صفة
لصاحبها فتعين حذفها .

(٢) اخلقت : أبلت .

(٣) أي استحضرته الجزاء الأخروي .

(٤) الإيأس : اليأس .

واجتهدت ، وعزفت عن الدنيا^(١) . وباينت الهوى ، وخالفت العدو ، وتبعث العلم ، وكانت مطية للعقل ، صابرة على مر ما يدل عليه الحق^(٢) ، فنجت وأنجت^(٣) .

(١) عزفت : زهدت فيها .

(٢) أي ما يشهد به ويشهد له .

(٣) نجت بنفسها وأنجت غيرها .

الخوف والحزن

وتعاهد يا أخي قلبك عند هممه ، والزمه الفكرة في أمر المعاد ، فلا تفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلاع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، واخلاق مروءاتهم ، وانتقاص أديانهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله فرادى آحاد ، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأهوال القيامة ، والوقوف بين يدي الله ، والمساءلة عن جميع ما كان منهم^(١) من قول أو فعل ، من مثل مثاقيل الذر ، وموازين الخردل .

وسؤاله عن الشباب فيم أبلى شبابه ، وعن العمر فيم أفنى عمره ، وعن المال من أين اكتسب ، وعن^(٢) منع ، وفيم أنفق ، وعن العلم ماذا عمل فيه ، وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها ، والتي كذبوا فيها .

فإنك يا أخي ان شغلت قلبك بذلك ، وأسكنته إياه ، كان فيك شيء من صحة تركيب العقل ، فإنه سيكل منك لسانك ، ولا يعدمك الخوف اللازم ، مع الحزن الدائم ، والشغل المحيط بقلبك ، فإن إبليس إنما يتسور عليك في الآثام من وسوسة نفسك ، وخراب قلبك .

وخرابه إنما يكون إذا كان فارغاً من الخوف اللازم ، والحزن الدائم ، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا ، والجمع لها ، وخفاة فقرها ، مع لزوم طول الأمل لقلبك ، واعراضه عن الله تعالى ، وانقطاع مواد عظمة الله

(١) منه (في الأصول) وما أوردناه يوافق السياق .

(٢) وعما منع (في الأصول) .

منه ، وفراغه من الهيبة والحياء منه . فإذا وجد القلب عامراً خنس^(١) ، ونفر منه ، ولم يجد فيه مساعاً ، ولا من جوانبه مدخلاً ، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر ، فهو منير مضيء .

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس ، فيرميه بالانكار لما يدعو اليه ، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه ، فيدحره^(٢) عنه ، فولى الخبيث الى قلب قد فقد الخوف ، فخرّب وأظلم ، فلا نور فيه .

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور ، فإذا وجدته^(٣) . خنس ، ونفر منه ، فلا يقدر عليه الا من قبل الغفلة من العبد .

ونور القلب إنما هو من تيقظه وحياته ، فإذا غفل مات وأظلم ، وطفئ نوره فيلبس على العبد ما يدخل عليه العدو ، أو يكدر عليه . فاختلس إبليس من العبد ، واستدام القلب بالغفلة ، فتسور عليه بالآثام ، فإذا أصر على الإقامة عليها ، ورضي بها ، علاه الرين^(٤) ، فأظلمه ، واستقر إبليس فيه ، ثم سلك به سبيل الآثام ، الى ان يوصله ويوقعه في الكبائر .

ولا شيء اعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده ، وانطفاء نوره ، وتراكم الرين عليه ، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء ، وإنما مأواه الظلمة ، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض .

ولقد بلغني ان النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم ، حتى يضاء له فيه بمصباح^(٥) .

(١) خنس : اختبأ وكمّن .

(٢) يدحره : يهزمه .

(٣) لا سيما إذا وجدته (ب) وما أوردناه من (أ)

(٤) الرين : الظلمة المتراكمة .

(٥) لعل هذا الخبر يكون من رواية أحد الصوفية إذ لم أقف عليه في ما بين يدي من مصادر .

مراقبة القلب

يروى عن بعض الحكماء أنه قال : ان من اشرف المقامات وأفضلها : المراقبة لله ، ومن احسن المراقبة : أن يكون العبد مراقباً بالشكر للنعم ، والاعتراف بالاساءة ، والتعرض للعفو عن اساءته ، فيكون قلبه لازماً لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل رده الى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا ترك الذنوب ، والتفرغ من الاشغال ، والعناية بالمراجعة .

ومن أعمال القلب التي يزكو بها ، ولا يستغني عنها : الاخلاص ، والثقة ، والشكر ، والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب في الله تعالى ، والبغض فيه^(١) .

وقال : أقل النصيح الذي يخرجك تركه ، ولا يسعك إلا العمل به ، فمتى قصرت عنه كنت مصراً على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده ، فأقل ذلك : ألا تحب لأحد من الناس شيئاً مما يكره الله عز وجل ، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخلق ، لا يسع تركها طرفة عين بضمير ، ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه ، وهي فضيلة للعبد : أن يكره لهم ما كره الله ، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى .

(١) أي يبغض اعداءه .

قال : وجاء رجل لابن المبارك فقال : أوصني . فقال : « راقب الله فقال الرجل : وما مراقبة الله ؟ فقال : « أن تستحي من الله » .

قال : فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك ، وهو : أن تضعه دون العرش ، فتناجي من هناك^(١) .

وفي رد القلب الى المراقبة مراجعتان : أولاهما : مراقبة النظر مع تذكر العلم . قال تعالى : ﴿ انه عليم بذات الصدور ﴾^(٢) . وقال تعالى : ﴿ يعلم ما في أنفسكم فأحذروه ﴾^(٣) . ثم تذكر العظمة لوجود الخلاوة .

ومقام آخر ، يروى أن الله سبحانه أوحى إلى ابراهيم عليه السلام : « يا ابراهيم ، تدري لم اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب . قال : لطول قيامك بين يدي »^(٤) . قال : فقليل : إنما كان قيامه بالقلب ، وليس بالصلاة . وهذا يوافق القرآن ، قال تعالى : ﴿ إنا خلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾^(٥) . وقول حارثة : « كأني أنظر الى عرش ربي بارزاً »^(٦) .

وقال : أعلى الأعمال في الدرجات أن تعبد الله على السرور بولاك ، ثم على التعظيم له ، ثم على الشكر ، ثم على الخوف ، وآخر الأعمال التي تكون بالصبر^(٧) .

والصبر على وجوه : صبر ، وصبر جميل^(٨) . ثم تخرج إلى الخوف ،

(١) والفخر الرازي بهذا القول متأثر بخواطر الصوفية ، الذين يرجعون الى العرش ، وينظرون في اللوح المحفوظ ويرون الله والله في خلقه شؤون .

(٢) هود (٥ / ١١) . راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥ / ٩) .

(٣) البقرة (٢٣٥ / ٢) .

(٤) راجع تفسير الطبري (١٣٥ / ٤) .

(٥) ص (٤٦ / ٣٨) أي جعلنا الآخرة هي كل همهم وشاغلهم فلا مصرف لهم عنها . راجع مختصر ابن كثير (٢٠٦ / ٣) بتصرف .

(٦) راجع مجمع الزوائد للهيتمي (٥٧ / ١) .

(٧) لأن الصبر عليها فيه قمع للشهوة .

(٨) التصبر : محاولة الصبر بمشقة .

والشكر ، ثم الى التعظيم ، ثم السرور .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في ايدي الناس عنده قليلاً ، وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً ، وليكن العظيم منهم اليه من الأذى صغيراً ، وليكن الصغير منه اليهم عنده عظيماً .

وقال : إذا دعتك نفسك الى ما تنقطع به عن حظك ، فاجعل بينك وبينها حكماً من الحياء من الله تعالى .

وقال : ان الأكياس^(١) . إذا دعتهم النفوس الى ان تقطعهم بخدائعهما عن سبيل نجاتهم ، حاكموها الى الحياء من الله تعالى ، فأذلها حكم الحياء .

وقال : مخرج الاغترار من حسن ظن القلب ، ومخرج حسن ظن القلب مع القيام لله على ما يكره ، ثم من كذب النفس^(٢) .

وقال : من النصيح أن تحب أن يكون الناس كلهم خيراً منك .

وقال : ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه ، فقال : « ليت بيني وبينه بحراً »

وقال : من انقطع الى الله يصبر على الناس^(٣) . ومن انقطع الى غير الله لم يصبر عن الناس .

وقال كرز^(٤) . : « من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس » .

وقال : إنما هي أيام قلائل ، فما على الانسان لو وهب نفسه لله .

وقال : التواضع لله : ذل القلب .

(١) الأكياس : الفضلاء .

(٢) فضله وتجعله يرى الخطأ صواباً والصواب خطأ .

(٣) لأن الله سبحانه حسبه .

(٤) وكان (كرز) رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً توفي سنة ٢٠٣ هـ . راجع طبقات الأولياء لابن الملقن

(ص ٩٨) .

وقال : أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدي فرائض الله ، ثم الصحة والغنى ، ثم العقل .

وقال : ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئاً من أحكامه^(١) ، وعليه أن يرضي بما ورد عليه من حكم مولاه ، فإن لم يرض صبر فللعبد حالان : حال يوافق منه رضي على ما يحب ، وحال يوافق منه صبراً على ما يكره .

(١) فمن رد على الله سبحانه وتعالى شيئاً من أحكامه كفر بالاجماع .

العدل والفضل

بسم الله الرحمن الرحيم . . يروى عن بعض الحكماء انه
قال : طريق الآخرة واحد ، والناس فيه صنفان : فصنف أهل العدل ،
وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان : عدل ظاهري ما بينك وبين الناس ، وعدل باطن فيما
بينك وبين الله .

وطريق العدل طريق الاستقامة ، وطريق الفضل طريق طلب الزيادة .
والذي على الناس لزوم العمل به طريق الاستقامة ، وليس عليهم لزوم طريق
الفضل .

والصبر والورع مع العدل ، وهما واجبان ، والزهد والرضا مع
الفضل ، وليسا بواجبين . والانصاف مع العدل ، والاحسان مع الفضل .
ومن شغله العدل عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن العدل فهو
مخدوع متبع لهوى نفسه . وعلى الانسان معرفة العدل ، ليس عليه معرفة الفضل
إلا تبرعاً ، وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فعله ، لا يجب عليه
علمه .

ولا يكون العبد من أهل العدل إلا بثلاث خصال . بالعلم حتى يعلم
ماله مما عليه ، وبالفعل ، وبالصبر .

فمفتاح العدل ، وأولاه بالعبد ، وأوجبه عليه : أن يعرف قدر نفسه ،
فلا يكون لها عنده قدر فوق منزلتها ، وأن تشبه سريرته علانيته ، فأخرم

الناس فيه ، وأقربهم منه مأخذاً : المراجع نفسه في كل خطرة تهواها نفسه ، أو تكرهها ، فينظر في ذلك : أن لو أطلع الناس على حالته هذه^(١) فاستحيا أو كرهها تحول من تلك الحالة الى حالة لا يستحيا منها . فإن الذي لا يستحيا منه ضد الذي يستحيا منه ، فإذا تحول واستمر فليُنظر ، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه ، تحول منه الى ما لا تشتهيه نفسه ، فإن الذي تشتهيه ضده ، فيكون أبداً في ضد ما تشتهيه نفسه .

وأبعد الناس من العدل : أشدهم غفلة عن هذا ، وأقلهم محاسبة لنفسه . وأبعد الناس من العدل ، وأطولهم غفلة عن هذا : أشدهم تهاوناً به^(٢) .

ولو عقلت من الذي تراقب ، ثم تقطعت أعضاؤك قطعاً ، وانشق قلبك ، أو سحت في الأرض ، لكنت بذلك محقوقاً ، فلما لم تعقل لم تجد مس الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى ، ومطالعتة على ضميرك ، وعلمه بما تجتلبه حواسك على قلبك^(٣) ، وقدرته المحيطة بك ، ثم أعرضت بعد ذلك كالمتهاون به الى مراقبة من لا يطلع على سرّك ، ولا علم له بما في ضميرك^(٤) ، فقلت : لو أطلع الناس على ما في قلبي لقلوني ومقتوني ، فمسك الحياء والخوف منهم حذراً من نقصان جاهك ، وسقوط منزلتك عندهم ، فكنت مراقباً ، ومنهم خائفاً ، ومن مقتهم مشفقاً ، إذ لم تخف مقت الله لك ، وسقوط منزلتك وجاهك عنده ، ومقت الله أكبر .

ثم اذا عملت شيئاً من الطاعات التي تقرب الى الله زلفى ، فإنهم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حمدهم على ذلك ، وأحببت اتخاذ المنزلة

(١) وردت (أن لو أطلع عليه الناس على حالته هذه) في الأصول وحذفت عليه لعدم فائدتها فهي زائدة .

(٢) وأطول غفلة من هذا (في الأصل) .

(٣) بما تجليه عليك حواسك (أ)

(٤) بما في ضميرك شيئاً (ب) .

عندهم بذلك . وإن كان شيئاً يتقرب به الى الله من طاعته بعقد ضمير ، او اكتساب جوارح ، فكان ذلك سراً ، أحببت أن يطلعوا عليه ليحمدوك ، ويقوم به جاهك . فلم ثقف باطلاع الله عز وجل ، ولا بثوابه في عمل السر ولا عمل العلانية ، واستوجبت من الله المقت على ذلك ، وسقوط الجاه عنده ، ثم مضت أيامك على هذا ، وأنت قانع بذلك ، راضٍ به ، غافل متمادٍ مفترٍ مخدوع ، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك ، وأحزم أمورك .

ولو استغنيت بالله وحده ، وباطلاعه عليك ، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته ، ومحبتهم ، وتوفيقه لهم ، وتسديده إياهم ، وراقبته ، لأغناك^(١) عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضرراً ولا نفعاً . وقد رضي منك بذلك ، وليتك تضبطه .

فأولى الفضائل بك ، وانفعها لك : أن تكون نفسك عندك دون قدرها ، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك ، وأن تبذل للناس حقوقهم ، ولا تأخذ منهم حقل^(٢) ، وتتجاوز عما يكون منهم ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الانصاف منهم ، وإنما هو التطهير ثم العمل ، والتطهير أولى بنا من العمل .

(١) ذلك لأن جزاء الله يكون حسب قدرة الله سبحانه وتعالى وجزاء العباد حسب قدرتهم أيضاً من ذلك كان جزاء الناس محدوداً مقيداً حسب مقاييس الدنيا ، وجزاء الله سبحانه وتعالى غير محدود حسب مقاييس الآخرة ، وكلما ازداد الإنسان في العبودية ازداد الله سبحانه وتعالى في العطاء حسب قدرته اللانهائية .

(٢) القصد من ذلك التسامح في الحقوق عن قدرة وقوة .

التطهير والعمل

والتطهير هو : الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير . وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير ، فترك الشر أولى بالعبد ، ثم يطلب الخير بعد . والنفس تجزع من التطهير ، وتفر الى أعمال الطاعات ، لثقل التطهير عليها ، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة ، فالحاجة الى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير وتوصل الى الله شديدة فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التلف ، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى يصل اليها .

فإذا وصل اليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل [تكون] قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد الى معرفة نفسه وهواها ، وعدوه ، ومعرفة ترك الشر أشد ان كان كيّساً ، وهو الى ذلك أفقر ان كان فطناً معنياً بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد ، والشر كله لازم للعبد تركه ، ومن ترك الشر وقع في الخير ، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله .

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر ، وليس في معرفة الخير العلمان جميعاً ، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزله ، واعتزله ، فكل ما

بقي بعد ذلك فهو خير كله . وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله ، لأن الخير مشوب بمزاج بالشر ، والشر شر كله .

وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيراً من الناس بالخير ، وأضل كثيراً منهم بالشر ، وإنما أضل من أضل بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر ، فجهلوا معرفة ذلك وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى ، وطريق محبة ، وسبيل استقامة ، وهم ضالون عن الله ، عادلون عن طريق محبته ، وسبيل الاستقامة إليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تلحق الأعمال ، وقلة علم العمال بها^(١) فإننا لله وإنا إليه راجعون .

ما أغفل الناس عن أنفسهم ، وعن أهوائهم ، وعن عدوهم ، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يردي ، ويفسد الأعمال .

والحري أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف ويخاف من ضرره ، وهو قائم بفرض تقرب اقامته من الله زلفى . وطالب الخير يكون طلبه له على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ، و[يعرف]^(٢) أن العلم شيء ، والعمل شيء ، والمنفعة شيء ، وربما كان علم ولم يكن به صاحبه عاملاً ، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة ، وربما كان علم وعمل ومنفعة ، ثم يكون بعد ذلك ابطال واحباط^(٣) . وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتم .

الخصال التي يطلب منها الخير

فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال سوى ما يحتاج فيه الى علم

(١) العمال : العاملون .

(٢) ما بين الحاصرين ساقط من [ب]

(٣) أي إفساد وإبطال .

حدود الأعمال وأحكامها ، وأدائها الى الله خالصة مخلصه ، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسن ، في الأوقات التي أمر وفرض .

فصاحب الخير العامل به لا يستغني عن : الصدق ، والصواب ، والشكر ، الرجاء ، والخوف .

أما الصواب : فالسنة . والسنة ليست بكثرة الصلاة تدرك ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالعقل والفهم ، ولا بغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والأئمة الراشدين من بعده .

وليس شيء أشد تهمة ، ولا أكثر ضرراً^(١) على السنة من العقل . فمتى أراد (العبد)^(٢) . أن يسلك سبيل السنة بالعقل والفهم خالفها ، وأخذ في غير طريقها ؟

وأما الصدق : ففي أربعة أشياء : تعمل العمل ، ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا شكوراً إلا من الله تعالى ، ولا تبطله بالمن والأذى ، ومنه صدق اللسان في الحديث ، وقد يصدق في حالة بلسانه وهو عاص لله تعالى في صدقه ، وهو : المغتاب والنمام .

وأما الشكر : فمعرفة البلوى . فإذا عرف ان كل نعمة فهي من الله لا من غيره ، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده ، شكر أو كفر ، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه ، ليشكره عبده أو يكفره ، فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا ، انه من الله ، وعده^(٣) من نعمه عليه ، ولم يدخل فيه أحداً : نفسه ولا غيرها ، فقد شكره . فالشكر متفاوت ، والناس فيه متباينون متصاعدون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد .

(١) حذرا (الأصول) وما أوردناه أنسب للسياق .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ)

(٣) أي حسبه كذلك .

ومنه أيضاً ، وهو يشبه ما وصفناه ، إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف العبد : ان ما به من نعمة فمن الله ، بقلبه ، علم يقين ، لا تخالطه^(١) الشكوك . فاذا عرف بقلبه ذلك ، ذكره بلسانه ، فحمده عليه ، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم .

وأعلام ذلك من الشكر : ان تعد كل بلاء نزل بك نعمة ، لأن الله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك . والناس يحتاجون عند ذلك الى الصبر ، وهو قائم بالشكر^(٢) .

وأما الرجاء فهو : أن ترجو قبول الأعمال ، وجزيل الثواب عليها ، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك ، أو يكون قد دخلته آفة قد أفسدته عليك .

والراجون ثلاثة :

رجل عمل حسنة ، وهو صادق في عملها ، مخلص فيها ، يريد الله بها ، ويطلب ثوابه ، فهو يرجو قبولها وثوابها ، ومعه الاشفاق فيها^(٣) .

ورجل عمل سيئة ثم تاب الى الله منها ، فهو يرجو توبته وثوابه ، ويرجو العفو عنها ، والمغفرة لها ، ومعه الاشفاق ألا يعاقبه الله عليها .

فهذان رجاؤهما رجاء صادق .

(١) لا تخالطه : أي لا تشوبه ، أو تمتزج به .

(٢) فالمؤمن إن أصابه الخير فشكر له الجنة وإن نزلت به المصيبة فصبر فله الجنة . عجبي للمؤمن .

(٣) لأن العمل شيء وقبوله شيء آخر ونسأل الله سبحانه أن يتقبل منا ، قال تعالى : ﴿ فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ [المائدة ٥/ ٢٧] .

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : توعد بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي وفيه إشارة الى ان الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي لله راجع تفسير البيضاوي (ص ١٤٩) والقرطبي (١٣٤/٦) وكشاف الزمخشري (٤٨٣/١ ، ٤٨٤) .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب ، وفي مالا يحبه لنفسه ، ولا يجب ان يلقي الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة ، وهو مع ذلك غير تائب منها ، ولا يقلع عنها^(١) ، وهو مع ذلك يرجو .

فهذا يقال له : مغترٌ ، متعلق بالرجاء الكاذب ، والأمانى الكاذبة ، والطمع الكاذب . والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد ، فيدوم اعراضه^(٢) عنه ، ويأنس بجانب مكر الله ، ويأمن تعجيل العقوبة . وهذا هو : المغتر المخدوع المستدرج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي ان يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء ، لأن الرجاء الصادق انما يكون على قدر العمل بالطاعات .

والخوف : على قدر الذنوب ، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾^(٣) . وقال : ﴿ ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴾^(٤) .

ومعنى الحديث الذي جاء : « لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لا اعتدلا »^(٥) ، لا ينبغي ان يكون خاصاً بين أهله . وهو مثل الحديث الآخر : « المؤمن كذي قلبين : قلب يرجوه ، وقلب يخاف به »^(٦) . فإنما هو إذا أحسن رجا ، وإذا أساء خاف مع التوبة والندم والاقلاع .

(١) غير تائب منه ولا مقلع عنه (الأصول) .

(٢) ويدوم إعراضه (الأصول) .

(٣) البقرة (٢/٢١٨) .

(٤) الأعراف (٧/٥٦) .

(٥) هذا الحديث لم أقف عليه في ما بين يدي من مراجع .

(٦) أخرجه الطبراني عن أبي هريرة وفي سنده نظر .

فأما من عرف نفسه بكثرة الاساءة فينبغي له أن يكون خوفه على قدر ذلك ، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الاحسان ، لأن الرجاء على قدر الطلب ، والخوف على قدر الهرب^(١)

(١) ونحن نرى أن الصالحين أكثر الناس خوفاً وإشفاقاً على أنفسهم ممن سواهم تأمل قول الفاروق عمر : « الويل لعمر إن لم يغفر له » .

البلوى والاختيار

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها ومرها ، أولها وآخرها ، وكل شيء من أمرها ، بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .

ويلوها وإن كثرت وتشعبت واختلفت ، فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر . فاما أن يشكر على نعمه ، أو يصبر على مصيبته .

قال الله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ (١)

وقال : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون ﴾ (٥)

(١) الكهف (٧/١٨) .

(٢) محمد (٤/٤٧) .

(٣) الأنعام (١٦٥/٦) .

(٤) هود (٧/١١) .

(٥) الفرقان (٢٠/٢٥) .

وقال : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾^(١) .

واكثر من ذلك في كتاب الله تعالى . وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾^(٢) . وهو كله لك بلوى . وأن أكثر ما يلي به العبد من أهل الدنيا : الناس . وافتن الناس لك ، وأكثرهم لشغلك . وإنما هو بمعارفك منهم . وأشغل معارفك لك ، وأكثرهم عليك فتنة : من أنت بين ظهرائهم ، ينظرون اليك ، وتنظر اليهم ، ويكلمونك ، وتكلمهم . فانك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ، ولم تسمع به ، كأنك لم تبطل بهم ، وكأنهم لم يبتلوا بك ، وكأنهم لم يكونوا في هذه الدنيا التي أنت فيها .

فارجع في صبرك الى الله ، واستعن به ، وانقطع اليه ، واستأنس بذكره ، واقلل من الخلطاء ما استطعت ، بل اترك القليل ايضاً تسلم ، لقول الله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيراً ﴾^(٣) . فاهرب من الفتنة .

فرجع صبرك الى معارفك ، ومن أنت بين ظهرائهم ، فنظر اليهم فتنة ، ونظرهم إليك فتنة ، وكلامك معهم فتنة ، وكلامهم معك فتنة ، وجفائوك لهم فتنة ، وجفائهم لك فتنة ، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك^(٤) .

واعتبر ذلك بموضع تمر فيه ، فيه معارف ، وموضع تمر فيه ليس فيه أحد يعرفك .

وهكذا شهوات المطعم والملبس ، وشهوات العين : ما يحل النظر اليه ومالا يحل النظر اليه ، مما كان من ذلك في غير البلدة التي انت فيها ، فأنت

(١) محمد (٣١/٤٧) . (٢) البقرة (٢/٣٥) .

(٣) الفرقان (٢٥/٢٠) راجع تفسير الامام القرطبي (١٨/١٤٤) .

(٤) فتنة : ابتلاء .

منها سليم ، وفتنتها بمصروفة عنك إن شاء الله ، لأن مؤونتها ساقطة .

وهكذا أنت في جميع أعمالك .

وعملك الذي تعمل انما هو فتنة ، انت فيه تريد ان توقي^(١) أعين الناس ، وأكثرهم من يعرفك بالخير ، فأعمالك لك فتنة . ان حججت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك ، وإلا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها . وان خرجت من بلدة انت فيها معروف بالخير ، فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد ، فهو أسلم لك ، وان علموا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها .

وكذلك الغزو ، وبلوى أهل الغزو ، وما ينوبهم في مغازيهم من الفتنة والبلى اعظم من بلىة غيرهم ، وأعظم من الذين يعملون بأعمال البر ، وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية ، فاذا دخلوا فيها جاءت الفتنة ، من التحاسد بعضهم لبعض ، وطمعهم في الحملان^(٢) . وما يجعل الناس في سبيل الغزو^(٣) .

ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو ، وممن له غناء عند لقاء العدو ، واسم عظيم في المطوعة يقول : الخيل قد خرجت ، ولم يقض لي^(٤) الخروج معها ، أما السلامة فأحب أن يسلموا ، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم .

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يعط هو وأعطي غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه . ولقد رأيت من غزا ولم يغنم ود أنه لم يكن غزا .

(١) أنت فيها تريد أن توقي فيها (أ) .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه الغازي من الخيل والإبل .

(٣) أي ما يتبرع به الناس للمحاربين الغزاة .

(٤) ولم يقص له (ب) .

ولا يؤمن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة جميعاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال ، وأن يدخل عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا .

فليحذر الرجل على كل عمل يعمل من أعمال الدنيا والآخرة ، وليراقب الله فيه ، ويعامله بضمير خالص ، ويحذر اطلاع الله على فساد في ضميره ، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله ، فإن كناس الحشوش^(١) أكرم من هذا الصائم ، وهذا المصلي ، وهذا القائم ، وهذا الغازي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم ، والجالس في بيته ببغداد يجب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه ، فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم ، يود أقوام غداً انهم لم يكونوا سمعوا بأذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل ، والدرجات الرفيعة ، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون^(٢) .

يقال : انها أعمال عملوها من أعمال البر كانوا يرون انها منجيتهم ، فكانت هي مهلكتهم ، لما مزجها من الرياء ، وحب المحمدة من المخلوقين ، واتخاذ المنازل بالطاعات ، وإقامة الجاه ، وحب القدر ، والميل الى ثواب المخلوقين .

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون ، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا ، فافتضحوا ، وفضيحة ما هناك باقية ، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد .

(١) كناس الحشوش : من يحمل فضلات الناس للعراء .

(٢) فهم حسبوا شيئاً ووجدوا أنفسهم على نقیض ما ظنوا فضاغت أمنياتهم مع السراب .

فليس اسم الأعمال يراد ، ولا تزيين ظاهرها ، ولكن تقوى الله ، وما يقرب اليه زلفى ، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين .

قال العدو الخبيث : ﴿ ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ﴾^(١) . فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر ، وقلة العناية بتصفية الأعمال ، وما قد استحلت النفس من حب المحمدة من المخلوقين ، وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام ، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة^(٢) . وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فتن بالآثام ، ولا يعرفون من قد فتن بالبر ، إلا القليل من الناس من أهل النور والفتن والفراسة والتوسم والكياسة .

وذلك ان الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها ، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها .

ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها ، ثم يغلبه الهوى ، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل .

واعلم ان الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال^(٣) ، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى ، فكيف الذي يجهل ويغفل ، ويغلبه الهوى ، ويحب دخول الآفة ؟

(١) الأعراف (١٧ / ٧) ولاحظ وتدبر ان الشيطان لا يستطيع أن يأتي من فوقهم حتى لا يحول بينهم وبين رحمة الله . راجع الطبري (٣٤١ / ١٢)

(٢) وذلك حسب أحوالهم فمنهم من يفتن في المال ومنهم من يفتن في الأولاد والأهل وفيهم من يفتن في النساء .

(٣) فقد يعمل الإنسان عملاً صالحاً يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى ، ولكنه يقرنه بما يبطله ويمنع قبوله ، فيذهب أدراج الرياح كأن لم يقدم شيئاً ، قال تعالى : ﴿ قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ [البقرة ٢٦٣ / ٢] الأذى بمنع ثوابها .

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة : بالبر والأثم جميعاً
افتتناً ، فاحذر فتنة البر والأثم جميعاً ، لا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك
والطلب . فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهمة بالعمل^(١) ، واكثر من
ذلك ، فإنه ليست شهوات الذنوب والسيئات ، وشهوات المطاعم والملابس
والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات
الجناء وحب الرياسة ، وإقامة القدر ، واتخاذ المنزلة ، وقبول الأمر والنهي
وقضاء الحوائج ، وحب العدالة ، عند الجيران والأصحاب والأخوان ،
والمداخلة على أصحاب البر في حسناتهم .

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنوب ، فيترك الذنب ، ويصير إلى
أعمال البر ، فيضعف عند تصفيتها ، وتغلبه شهوة ما فيها ، فيعمل حسنات
كثيرة بقوة واقتدار عليها ، وظمأ شديد وسهر ، ولا يقدر على أن يغلب شهوته
على تصفيتها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون مما قد نزل بنا ، وما أعظم خطرنا ،
ما أغفلنا عن عظيم الخطر .

ثم اعلم اني لست أزهدك في طلب أعمال البر ، لأن كل عمل لا
تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً ، ولكني أحذرك خدع الشيطان ، وهوى نفسك
الأمارة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقد قال الله
تعالى : ﴿ فَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(٣) .

(١) لأن الفكر متصل بالعمل إتصلاً وثيقاً لا تنفصم عراه ، والقصد من الخواطر المتصلة بالعمل
هي النية . فلا ثواب إلا بالنية ، والأمور بمقاصدها ، ونية المرء خير من عمله .

(٢) النحل (٩٨/١٦) .

(٣) فاطر (٦/٣٥) . يقول الطبري في تفسير هذه الآية : إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين
في النار التي تتوقد على أهلها : راجع الطبري (٧٨/٢٢) .

وقال : ﴿ ان النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ، ان ربي غفور رحيم ﴾ (١)

وقال : ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ بل سولت لكم انفسكم أمراً ، فصبر جميل ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ (٥)

وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ واتبع هواه وكان امره فرطاً ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ (٩) . مع أشياء كثيرة في ذكر عداوة إبليس ، وذم النفس والهوى .

قلت : أرى من الناس أشياء يعاب مثلها ، وأحب أن أسلم من التعبير والازدراء والعيب فلا أدري أسلمت منه نفسي أم لا .

فقال : ان الانسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وعند معرفة عيب غيره جهيذ . فيحتقر عيب (١٠) أهل كل صناعة ، وأهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة ، ويحتقر (١١) عيب من هو في مثل مرتبته ، ويستعظم ذلك من كل

(١) يوسف (٥٣/١٢) . (٧) القصص (٥٠/٢٨) .

(٢) طه (٩٦/٢٠) . (٨) الكهف (٢٨/١٨) .

(٣) المائدة (٣٠/٥) . (٩) القمر (٣/٥٤) .

(٤) يوسف (٨٣/١٢) . (١٠) فلا يحتقر (الأصول) .

(٥) ق (١٦/٥٠) . (١١) ولا يحتقر (الأصول) .

(٦) ص (٢٦/٣٨) .

من رآه منه ، فإذا أتى على عيب نفسه جازته^(١) الى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه ، ولا يطلبه لغيره ، فهو في طلب عذرها جهيب ، وفي طلب عذر غيرها أبله ، وهو يضمن عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمن له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك ، فاجعل نفسك مكانه ، ثم أنظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه ، وأضمر ذلك له في نفسك ، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه .

هكذا إذا رأيت ما يستحسن ، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له .

وبالحري^(٢) . أن يكون أخف الناس عليك عند الزلة : من يطلب لزلتك عذراً ومخرجاً ، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساء ذلك ، وأخفى مكانه ، وعند حسنتك يسر ، فإن لم يسر لم تسوءه . فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة . فإذا كنت كذلك فلا تحب ازالة نعمة أنعمها الله على أحد في دين ولا في دنيا ، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى ، ولا تحب أن يهتك ستره عند زلته ، فانك إذا فعلت ذلك بقلبك ، زال عن قلبك الحسد ، عن الدين والدنيا جميعاً .

ومتى غلبت عليك المسابقة الى ضميرك بسوء المحضر ، فلا تغلبن على مشاهدته بحسن المراجعة في جميع أمورك .

واعلم انك مسبوق الى ضميرك بالحسد ، وسوء الظن ، والحق ، فاجعل المراجعة شغلاً لازماً ، وكن وقافاً ، كما قال الأول : « المؤمن

(١) جازته : تركه .

(٢) وبالحري : بالأحرى والأجدر .

وقاف » . وليس كحاطب ليل^(١)

فقف وطالع ضميرك بعين حديدة النظر ، نافذة البصر ، فإذا رأيت أمراً محموداً فأحمد الله ، وامنض ، وإذا رأيت مكروهاً إداركته بحسن المراجعة ، واستقصيت^(٢) فيه ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف ينجبىء فيه ، وإن كان مظلماً فأنت لا تشعر ، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه والانكار لما دخل فيه : ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به .

ولو قد جربت لعرفت ان الذي أقول لك كما أقول : يدخل داخل منزلك بغير اذنك ، وهو داخل لا يؤمن أن يخرب المدخول عليه . فإن رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً كان هو المقيم بالمنزل ، المدبر له ، فاستولى على حر بيتك وعلى حرمتك . وإن رأى منك انكاراً فيه ضعف اختفى لك يلتمس سهوتك وغفلتك ، فاذا وجد فرصته خرب عليك ما كنت أصلحت ، وهدم ما بنيت ، فافهم ان كنت تفهم ، واقبل من الناصحين ان كنت تقبل .

فلو رحلت في ما أخذت المطايا ، فبلغت حيث تبلغ من البعد ، وانفقت في سبيل ذلك حر بيتك ، كان الذي أخذت أكثر من الذي انفقت وتعبت فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها ، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى أكرم بها أهل خاصته^(٣) ، وعظم النعمة عليهم فيها ، فإن عظم النعمة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه موضع حرمة ومصلحة ، أو وجدته مفسوداً بعينه ، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهباً الى يوم القيامة .

(١) حاطب الليل : الذي يجمع الخطب وهوام الليل في الظلمة فلا يمكنه تمييز الجيد من الرديء .

(٢) استقصيت فيه : تدبرت وتأملت .

(٣) من الأتقياء الصالحين أصحاب النفوس اللوامة التي أقسم بها سبحانه وتعالى لشرفها عنده .

واعلم اني انما اكثر عليك وعلى نفسي من ذكرها لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة الى المراجعة . فلو قد تعلق بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه^(١) ، والمسلم نفسه اليه ، فهلك وأنت لا تشعر . وإن كنت متهاوناً بما أقول لك فإن أكثر حاجتك اليه في صلاة الفريضة ، ثم بعدها ، وهلم جرا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة ، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ امامك ، ولم تدر أني فرض كنت أم في نافلة ، في صلاة كنت أو في غيرها ، وأنت في رأس العين ممن يناجي ربه ، وقد أصغيت بأذنيك الى امامك ، وتخشعت بوقوفك ، وفرغت قلبك لاستماع ما يقرأ عليك امامك من كلام ربك في صلاة فريضتك ، التي ليس شيء أوجب عليك منها ، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا ، وأنت كمن لم يشهدا لقله ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعل الذي حضرت منها بقلبك أو عقلته^(٢) فلم تسه عنه ، لو قيل لك : أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهياً ولك مائة الف دينار لقلت : لا .

فاعتني الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك اليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك ، والمصير اليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان الى شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمانة بالسوء ، والهوى المضل عن سبيل الله ، العادل بأهله عن طريق محبته ، وفي ذلك توثب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبلاً ، الذي يجري منك مجرى الدم^(٣) ، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراه .

(١) وهل هناك أخسر من المستأنس بعدوه ؟

(٢) عقلته : وعيته .

(٣) أي شديد القرب منك .

قال مالك بن دينار : « قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر ، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور » . فتعاهد أمرك بالمراجعة^(١) ، فإن رأيت مكروهاً أصلحته وتحولت عنه ، وإن رأيت غير ذلك حمدت الله ، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك ، وقربة . وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة ، فاعلم انها نعمة وقربة من أعظم نعم الله ، وأحق من أحسنت مصاحبته نعم الله التي مفتاح خزائنها رحمة الله ، فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها ، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمانة بالسوء ، والإساءة اليها : مخالفتها ، فإن في مخالفتها موافقة مرضاة الله .

قلت : فمن أهل الأرادة ؟

قال : من لم يتخط عيباً ولا عورة الى نافلة^(٢) .

قلت : فما حفظ اللسان ؟

قال : الصمت .

قلت : فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام ؟

قال : ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره اذا ذكر به الثواب ، لكيلا يخرجك ذلك الى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره العقاب . وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ ، واحمل عليه من الناس من استرشدك ، وأراد مثل الذي تريد ، فإن العبد أكثر ما يؤتى من قبل التهاون باليسير^(٣) ، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير ، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير ، فيكون أوله كان تحفظاً ، ثم صار انبساطاً ، ثم صار من الانبساط الى ذكر اليسير ، ثم صار من اليسير الى ما هو أكثر منه ، فلا تشعر حتى ترى

(١) أي تول أمرك بمراجعة نفسك أولاً بأول .

(٢) أي أن التطهير أولى من النوافل .

(٣) فلا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فالإصرار على الصغائر يجعلها كالكبائر .

نفسك حيث كنت تكره ان ترى فيه غيرك ، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير .

وأقوى الناس على ذلك وأصدقهم عزمًا هو الذي إذا عزم أمضى عزمه ، ولم يلو ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزمًا^(١) ، وهو الذي يعزم ثم يحل عزمه ، ولا يكاد يمضي عزمًا . فهذا الذي يتلاعب به العدو والهوى والنفس ، ليس له عندهم قدر ، لكثرة معرفتهم بتناقض عزمه ، وقلة استعماله له ، وأولوا العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

(١) لقلة رصيده من اليقين الإيماني .

التوبة وحسن الظن بالنفس

قلت : فمن أرجى الناس لقبول التوبة منهم ؟

قال : أشدهم خوفاً ، وأصدقهم ندامة على ما كان منه ، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله وخطله^(١) ، وطول غفلته ، ودوام اعراضه ، وأحسنهم تحفظاً في ما يستقبل . وإن استووا في ذلك فأشدهم اجتهاداً في العمل .

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب : شدة التحفظ فيما بقي من العمر ، وموابة الطاعة بالجد والاجتهاد ، واستقلال كثير الطاعة ، واستكثار قليل النعمة ، مع رقة القلب ، وصفائه وطهارته ، ودوام الحزن فيه ، وكثرة البكاء ، والتفويض الى الله تعالى في جميع الأمور ، والتبري اليه من الحول والقوة ، ثم الصبر بعد ذلك على احكام الله عز وجل ، والرضى عنه في جميعها ، والتسليم لأمره كلها .

وقال لي : قد علمت من أين غلطت ، أحسنت الظن بنفسك ، فتاقت الى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم من غير انكار منك عليها لمساوي أفعالها ، ولا دفع لما ادعته من أعمال الصادقين . وأسأت الظن بغيرك ، فأنزلتهم في درجة المسيئين اغفلاً منك لشأنك ، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك ، عوقبت بأن غارت عيون الرحمة والرافة من قلبك ، وانفجرت اليه أنهار الغلظة والقسوة ، فأحببت أن تنظر الى الناس

(١) الخطل : خطأ الرأي .

بالإزراء^(١) عليهم ، والاحتقار لهم ، وقلة الرحمة ، وأردت أن ينظروا اليك بالتعظيم والمهابة والرحمة ، فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة ، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً ، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً ، وا زددت أنت من الله بعداً وسخطاً .

وأطلت في ذلك كله أملك ، فطاب لك المسير في طريق التسويف ، ومدارج الخيرات ، فاشتدت رغبة نفسك ، واستمكن الحرص من قلبك ، فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك ، وشحت فجمحت الى شهواتها ، واحتوشت قلبك لذاتها ، فحال ذلك بينك وبين ان تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة ، فقلبك حيران على سبيل حيرة^(٢) ، قد اشتبهت عليك سبل النجاة ، وشقق حجاب الذنوب ، فأنست لقربها ، وطاب لك شم ريحها^(٣) ، فوصلت بذلك الى محض^(٤) المعصية ، فادعيت ما ليس لك ، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

ثم أخرجك ذلك الى ان تكلمت لغير الله ، ونظرت الى ما ليس لك ، وعملت لغير الله ، فكنت مخدوعاً مسبوعاً^(٥) . عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر ، ومستدرجاً من حيث لا تعلم ، فكان ميراث عملك الخب^(٦) ، والجريرة^(٧) ، والغش ، والخديعة ، والخيانة ، والمداهنة^(٨) ، والمكروه ، وترك النصيحة ، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

فمن كانت هذه سيرته ، فلا ينكر أن يبدوله من الله ما لم يكن

(١) الإزراء عليهم : الإزدراء بهم ، والاستهانة بأقدارهم .

(٢) أي على طريق الخيرة .

(٣) أي طابت ريحها لك .

(٤) محض المعصية : أي حقيقتها وخلاصتها ، والمحض من الشيء هو صريحه وخلاصته .

(٥) مسبوعاً : متعرضاً للسباع من شدة الخطر .

(٦) الخب : اللثيم الخادع .

(٧) الجريرة : الإثم والكذب .

(٨) المداهنة : الملاينة في الظاهر وإضممار النقيض في الضمائر .

يحتسب . فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوف لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن أثكلت ، ونحت عليها نياحة الموتى حين غشيك شؤم الذنوب . ولو بكى عليك أهل السموات وأهل الأرض لكنت مستوجباً لذلك ، لعظم مصيبتك ، ولو عزاك عليها جميع الخلق تعزية المحرووب المسلوب^(١) لكنت مستحقاً لذلك ، لأنك قد حربت دينك ، وسلبت معرفتك بشؤم الذنوب ، فركبك ذل المعصية ، وأثبت أسمك في ديوان العاصين ، واستوحش منك أهل التقوى إلا من كان في مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طريق المحبة له ، وسلكوا سبيل النجاة إليه ، وأخذت في غير طريقهم ، فملت حين خالفت طريقهم الى غيره ، فبقيت متحيراً ، وعن وجع الإصابة متبلداً ، وبمثل هذه الأسباب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة ، وبالله نعوذ ، وإياه نسأل عفواً وتقريباً منه مع المحسنين انه لطيف خبير .

قلت : أما تخاف ان تكون هذه المعرفة حجة عليك ، والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان ، ومشغلة وصدأ عن نفعها .

فقال : واسوأته من غفلة واصفها عن محاسنها ، ومن رام رمى فلم يخطيء حيث أراد . فأما الأمن فمحرم ، وأما الخوف ففرض^(٢) . على من يؤمن بالله واليوم الآخر ، بالوعد والوعيد ، وقد علمت ان القصد الى نفس المحبة ، والعناية بها ، أبلغ لصاحبه ، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة ، لأن طلب نفس المنفعة غير طلب وصف المنفعة ، وانما اشتغلت بالوصف اضطراراً حيث رأيت نفسي خارجاً منها جميعاً ، فاعتنيت بمعرفة وصفها ، والهداية اليها^(٣) ، رجاء ان يوصلني ذلك الى نفس المنفعة ، والهداية اليها ، والله المستعان على ما نقول وما نضم .

(١) المسلوب : الذي سلبه اللصوص .

(٢) والله سبحانه لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين ، إذا خافه عبده في الدنيا آمنه في الآخرة ، وإذا آمنه في الدنيا خوَّفه في الآخرة ، وكذلك نرى الصالحين أكثر الخلق خوفاً وخشية من الله .

(٣) الهداية اليها : الإرشاد اليها .

وان العبد بين تسع مخاوف :

فأولها : ان يخاف ويدعو الله ، ويتضرع اليه : ألا يكله الى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً .

والثانية : ان يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها^(١) ، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة : خوف الاستدراج بالنعم وتواترها^(٢) .

والرابعة : خوف أن يبدوله غداً من الله ما لم يكن يحتسب في طاعاته التي يرجو ثوابها ، ولم يعدها من ذنوبه .

والخامسة : الذنوب التي عملها ، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى .

والسادسة : تبعات الناس قبله .

والسابعة : انه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة : أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا ، والنكال فيها قبل الفوت .

والتاسعة : الخوف من علم الله تعالى فيه ، وفي أي الدارين أثبت اسمه في أم الكتاب فاحذر الذنوب ، فإن شؤمها قريب ، وظلمتها شديدة ، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين ، فما أقرب القارئ المتعبد بغير معرفة : أن يتكبر على عباد الله عز وجل ، ويمتن على الله سبحانه بالحسنات التي لو وكله اليها كان فيها هلاكه ، وما أقربه من أن يطلب الناس

(١) البطر : احتقار الحق ودفعه عنوة وتجبراً .

(٢) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم ان كيدي متين ﴾ [الأعراف ١٨٢/ ٧ ، ١٨٣] وهذا الاستدراج قد يكون بتواتر النعم عليهم فيظنون انها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وإنهماكاً في الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب . راجع تفسير البضاوي ص ٢٠٥ .

بما أراد الله منهم من الطاعة له ، والاجلال والاعظام ، والقدر العظيم .

ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه ان يسيء اليهم ، ويطلب منهم الاقرار بالاحسان ، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه . ان الله تعالى أراد منه : « أن يتزين له ، ويتعبد له ، ويخلص له العمل وحده ، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه »^(١) .

(١) وليس ثمة أخطر على الإسلام من عابد يتعبد من غير فقه لأن الفتنة به والفتنة فيه والفتنة منه غير مأمونة العواقب لا سيما على الدهماء من الناس .

المدح والذم

قلت : الرجل يقول : انه ممن لا يريد بعمله جزاء ولا شكوراً ، وهو معروف بأعمال البر : بالصلاة والصدقة والصيام وغير ذلك ، وقد مدحه قوم فسرهم ذلك جداً ، وفرح به وذمه آخرون فسأه ذلك جداً وكرهه ، حتى عرف من نفسه التغير لكلا الفريقين جميعاً ، كيف يعرف هذا نيته ، وحب المحمدة وكراهية المذمة ثابت في قلبه ، والمرايي يحب الثناء ، ويكره المذمة ؟

قال : انه لا يجب على الناس ان يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة ، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة ، عملوا الحسنات أو لم يعملوا ، اذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد ، لأن المرايي^(١) وان كان يريد على أن يحب المحمدة ويكره المذمة ، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وان اكثر الصادقين قد مدحوا ، واثنى عليهم ، ولم يضرهم ذلك شيئاً ، وإنما الفرق بينهما : أن المرايي : ارادته وأمله في عمله جاه الدنيا ، والمنزلة عند أهلها ، فأفسد عمله بنيته وارادته ، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله ، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه ، ذموه أو لم يذموه . وغير المرايي انما كره المذمة لخال ما فيها من الكراهية ، مثل السقوط من أعين الناس ، والبغضة والمقت من المؤمنين ، وأشبه ذلك . والثناء الحسن والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله ، وما جاء من الرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، والمحبة من الناس ،

(١) المرايي : الذي يراي الناس ، ويحفل بشنائهم عليه وحمدهم له .

ومودتهم له ، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره : ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة ، حمدوه أو ذموه ، أحبه أو أبغضوه .

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله : إرادة الآخرة ، ثم ينتقل قليلاً قليلاً إلى إرادة الدنيا . وذلك انه شيء خفي ، والعامّة تقل معرفتهم به ، وعنايتهم بذلك ، وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه^(١) ، وقد كان ينبغي ان تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة ، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقلبها ولا يغيرها عن حالاتها ، والنية لا يؤمن عليها الفساد وان كانت صادقة صحيحة : ان تتحول من أحسن ما كانت عليه الى أقبح ما تكون عليه ، وأفسدها لعمل صاحبها .

وقد قال النبي ﷺ : « الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى »^(٢) . فالأعمال بالنية تكون ، وعن النية تكون ، فالعبد أحوج إلى معرفة النية ، ومعرفة فسادها ، إذا كانت الأعمال انما تصح بتصحيحها ، وتفسد بفسادها ، وأن جميع ما نذكره انما هو وصف للعمل ، وللحقيقة والصحة علامات ودلالات غير هذا .

وان الأعمال كلها عملان : عمل تمكن فيه النية ، وعمل لا تمكن فيه النية . والعمل غير طاعة الله ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ لا تمكن فيه النية ، والذي تمكن فيه النية : عمل في طاعة الله على السبيل والسنة . والناس فيه صنفان : صنف يعرفون النية ، وصنف لا يعرفون النية . والذين يعرفونها صنفان : صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف ، والأماي ، وصنف لا يأتَمَنون أنفسهم عليها ، ولا يعنون إلا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان ، وهو المحنة ، محنة نفسك^(٣) .

(١) وأكثر الآفات وأخطرها الغفلة .

(٢) ويجمع الأصوليون على أن « لا جزاء إلا بالنية » . وعلى النية كل تعويل لشئ أمور الإنسان ونشاطاته .

(٣) محنة النفس : بابتلائها ، وفتنتها .

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمودة والثناء اشفاقاً على عمله ، وخوفاً من فتنته ؛ و(يجب على هذا)^(١) ألا يعبأ بما يخيل إليه من ذلك ويظن ، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون^(٢) ، حتى ينظروا الى تحقيق صدقه عند البيان ، فليراجع (العبد)^(٣) . نفسه إذا اتني عليه أو مدح ، أو ذموه ونسبوه الى ما يكره ، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحه إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من الستر ، والرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، لمثل قوله تعالى : ﴿ والقيت عليك محبة مني ﴾^(٤) . ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾^(٥) قال : الثناء . وقال : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾^(٦) . وقال : الثناء الحسن . وقوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾^(٧) . قال : الثناء الحسن .

وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به الله ، فيحمده عليه الناس ، ويثنون عليه به فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن »^(٨) . وقوله ﷺ في العبد إذا أحبه الله : « لم يخرج من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يجب »^(٩) . وقوله : « انتم شهداء الله في الأرض »^(١٠) . واشباه ذلك في الكتاب والسنة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكراً لستر الله عليه ، وحمداً منه لله اذا جعله الله عز وجل ممن يذكر بعلامة الخير ، فليس ذلك بسرور فاسد ، ولكنه شكر وطلب مزيد . وعلامة سلامة نيته في ذلك : ان يزداد الله تواضعاً ، ولآلائه شكراً ، وفي طاعته اجتهاداً ، ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه

(١) يجب على هذا ساقطة من (ب)

(٢) ليس كما يظن ساقطة من (أ)

(٣) العبد ساقطة من (أ)

(٤) طه (٣٩ / ٢٠)

(٥) العنكبوت (٣٧ / ٢٩) .

(٦) النحل (١٢٢ / ١٦)

(٧) الشعراء (٨٤ / ٢٦)

(٨) أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة .

(٩) أخرجه الطبراني والبراز عن سعد بن أبي وقاص .

(١٠) الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الى طريق المخافة من الاستدراج ، ويكون ما خفي من عمله أحب اليه مما ظهر ، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة في ما يستمعون من المدحة والثناء . ولما جاء من النهي والكراهة للتنزيكية والمدحة أن يسمع الرجل صاحبه . . . وذلك مثل قوله ﷺ : « من مدح أخاه في وجهه فكأنما أمر على حلقه موسى رميضاً »^(١) . ومثل قوله عليه السلام : « لو سمعك ما أفلح »^(٢) . ومثل قوله ﷺ : « عقرت الرجل عقرك الله »^(٣) . وهذا ونحوه كثير .

فاذا كان مذهبه ونيته : شكر الله على ستره ، وحمد الله على نعمته ، ويكون ما سبق من السرور الى قلبه في ثناء إذا سمعه رجاء القدوة به اذا كان ممن يصلح أن يقتدى به ، لقول الله عز وجل : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾^(٤) . يقال : أئمة في الخير يقتدى بنا .

فإن [كان] كذلك رجوت ألا يضره ذلك ، ولا يفسد عليه عمله .

وقد ذكر عن مطرف^(٥) انه قال : « ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت الى نفسي » . وقال زياد بن أبي مسلم^(٦) : « ليس أحد يسمع ثناء و مدحة إلا تراءى له شيطان ، ولكن المؤمن يراجع » . فقال ابن المبارك^(٧) : صدق كلاهما . أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص .

وان كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسر به : طلب الرفعة والمنزلة عند الناس ، فما أسوأ حاله في احباط عمله .

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن الزبير بن العوام .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر .

(٤) الفرقان (٧٤/٢٥)

(٥) راجع ترجمة مطرف بن عبد الله العامري البصري في تهذيب التهذيب (١٧٣/١) .

(٦) زياد بن أبي مسلم .

(٧) راجع تذكرة الحفاظ للذهبي (٢٧٤/١) .

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره . طلب الثناء والمحمدة والرفعة والتكرمة عند الناس ، واحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه بالويل والثبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق : أن ما أعجبه لهذا المعنى ، ولم يعجبه ذاك لما نال من الجاه عندهم ، فلا جناح عليه ، وعلامته : أن يزداد تواضعاً ، ويحدث خوفاً من الاستدراج ، وما يخفى من عمله فهو أحب إليه مما يظهره ، لأنه طمع في طريقة الصالحين ، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم ، وما نالوا به اسم الصلاح ، وصاروا من أهله ، مع ما يلزمه من الخوف والفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا اثني عليهم أو مدحوا ، مثل قوله عليه السلام : « عقرت الرجل » . ومثل قوله : « لو سمعتك ما أفلح » . وقوله : « قطعت عنق أخيك »^(١) . وقوله : « إياكم والمدح فإنه الذبح » . وقوله : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب »^(٢) . وقوله : « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه »^(٣) . ومثل هذا كثير .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا ، وأصحاب الرياء المحبين لذلك : أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك ، وازدادوا غرة واعجاباً بأنفسهم ، وغفلة عن الاستدراج ، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم مما خفي ، ولم يخافوا من فتنته ولا من آفته .

وكذلك إذا كره المذمة إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء ، لينال بذلك الجاه والقدر والمنزلة والرفعة عند الناس ، فهي كراهية سقيمة مذمومة ، وصاحبها مغرور مخدوع .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود . راجع كشف الخفا للعجلوني (١ / ٥٧) ط . دار التراث .

(٣) رواه أبو داود والترمذي عن سمرة بن جندب .

وان كان إنما هي حب منه لستر الله عليه ، وكراهية هتك الستر عنه ، لأنه لم يميته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس ، فإن كانت الكراهية إنما هي من هذه الجهة ، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق ، فلا يلام عليه .

وعلامته : التضرع والاستكانة والمراجعة والنظر في التخلص الى طريق محبة الله تعالى ، وسبيل الاستقامة ، ومحجة الإيمان ، والجد فيه .

وأبين^(١) من ذلك : انه كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله ، لا يريد من أحد على عمل يعمل به من أعمال الصالحات جزاء ولا شكوراً ، ثم عرفه الناس بعمله ، وذكر وصار معروفاً عندهم ، ونال منهم الرفعة ، فإن كان يعرف من نفسه انه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة الى غيره ، ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، ذكر ولا غيره ، فكان هذا أحب اليه ، فأمره مرجو .

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه الى غيره ، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، فدعواه حينئذ باطلة ، لأن الذي يقول : انه يريد به عمله ولا يريد غيره ، فإذا تحول ذكره الى غيره لم يحول الذي عمل له العمل ثوابه الى غيره ، ولم ينقصه من ثوابه شيئاً ، ولعله أن يكون أكثر له عنده ، وأقرب مثوى . والذي كان يزعم أنه لا يريد به كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبت له عندهم به المنزلة ، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريد به بلا ذكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر ، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر ، فنسبوه إليها ، ويظنون أنه صاحبها ، غلطاً منهم بها وجهالة ، فكره أن يعرفوا ذلك أو يطلعوا عليه ، وأنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة ، أو له عمل من البر ، وعند الناس أن ما يعمل هو من البر أكثر ، فيكره أن يطلع الناس

(١) أبين من ذلك : أوضح منه وأظهر .

عليه ، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يجب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يجب أن يحمد بما قد فعل حتى يحبها جميعاً .

كذلك ان صحب رجلاً معروفاً بالصلاح والعبادة عند الناس ، أوله سبب قد نال به ذكراً^(١) من غيره ، فكره أن يسقط ذلك عند الناس ولم يعبأ^(٢) بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر ، [فإنه ممن يجب أن يحمد بانتسابه الى غيره] ، فإنه لا يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ، ولا يجب ان يذكر بعمل نفسه الذي يعمل هو حتى يحبها جميعاً^(٣) .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يجب عليها فيه الصديق ، فأرجو أن يكون من أهل الصديق ان شاء الله تعالى .

(١) قد نال بذلك ذكراً (الأصل) وما أوردناه أصح .

(٢) فلا يعبأ (الأصل) وما أوردناه أبين .

(٣) أي يجب الذكر بعمله ويعمل غيره .

اليقين والعز

وأما اليقين فعند العمل ، والصدق فيه : مشاهدة الثواب والعقاب ، فليس يكون بكثرة النفقة ، ولا بكثرة الكلام ، ولا يحتاج فيه الى تحريك الشفتين ، ولكن بالإيمان وبالعقل ، وبالمعرفة ، وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه ، فتعرف الصدق ، وتعرف ضده من الكذب ، وتعرف الخير ، وتعرف ضده من الشر ، فتعمل في اثبات الصدق ونفي ضده ، وتعلم الأصل من الفرع ، فيكون الشغل في اثبات الصدق من وجه الأصل ، وانتفاء ضده من وجه الأصل ، فإن الأصل يأتي على الفروع .

وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل^(١) ، فليس لشغله فناء ما دام الأصل ثابتاً ، كلما ذهب فرع أخلف بدله آخر^(٢) .

وحب العز أصل ، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ، ومنه الكبر والفخر ، ومنه الغضب والحسد ، ومنه الحقد والحمية والعصية . والنفس عاشقة له ، وهو قرة عينها ، وهو أحب اليها من أم واحد لواحد . وبلغني إنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة ، وذلك لصعوبة تمكنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المرید المستحكم^(٣) من أهل القراءة^(٤) ، سلاحه الذي يقوى به سلطانه هو العز في النفس ، والفخر بالعمل ،

(١) وما دام العبد يشتغل بالأصل عن الفرع (الأصل) وما أوردناه يقتضيه السياق .

(٢) أي فرعاً آخر .

(٣) المستحكم : المثبت بالأمر .

(٤) القصد أهل القراءة من غير المتفقهين .

والأزراء على الناس . وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وعزة في نفسه زائد . نعم ، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز ، ولا أعلم أني رأيت أحداً من أهل النسك خالياً منه ، يعني من العز ، فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه معه ، فلا يفلح معه عابد ولا زاهد ، وكيف يكون زاهداً والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد .

فمن عالج نفي العز من نفسه ، ووفقه الله لذلك ، فنال نفيه ، سهل عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل ، ومحبة الإيمان ، وسبيل الاستقامة ، ومدارج الصالحين وهانت عليه معالجة الصدق في عمله ، واطمأنت نفسه الى التذلل والتواضع ، وطاب له طريق العدل ، لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز ، ولا يقدر على كظمه الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز ، ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها^(١) وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز ، ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز ، ولا يقدر على النصيح وفيه العز ، ولا يسلم من الأزراء على الناس وفيه العز .

فما أكثر ضرره ، وأعظم فساده ، وأظهر أمره ، وأقل رشده ، وأبين غيه عند الخاص والعام وما أغفل الناس عنه ، وأقل معرفتهم به ، وأشد متابعتهم له .

فاللهوى حكمه ، والكبر أخوه وعضده ، والجور سيرته ، والغضب سلطانه ، والرياء عون من أعوانه ، له يكسب ، واليه يؤدي ، والعجب أضعف عون له ، والحسد أمير جنوده ، والغل صاحب مشورته . وقال رسول الله ﷺ : « الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال بعضهم : « الغل والحسد »^(٢) .

(١) وحليته (الأصل) .

(٢) الغل الحقد والسخيمة .

والعز في الخلق عام ، في العبيد والاماء ، والفقراء والأغنياء ، والضعفاء والأقوياء ، والقراء والعلماء ، وكل واحد منهم يظهر منه على قدر ما يمكنه إظهاره ، ومن لم يمكنه الاظهار عامل الناس به سرّاً في نفسه ، لأنه ما دام في الانسان لا يترك حظه منه سرّاً ولا علانية . أما تراه كيف يتغيظ في نفسه على غيره ، وكيف يحسد ، ويدور حوله يطلب عوراته ، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى ، ولو ملك من ذلك في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن .

وأقبح أمره ، وأفسده له ، وأشدّه فضيحة ، اذا كان في القارىء لأنه لا يكاد يتعزز على غيره بسبب من الأسباب إلا بأسباب الدين ، وإلا رأيت فيه أثر ذلك^(١)

فسبحان الله ماذا يلقي القراء خاصة من العز ومن أعوانه ، يدلك على ذلك سرعة حقدهم ، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الاعزاز لها ، وما يجدون^(٢) على الناس فيه مما لا خطر له ، وذلك كله من داء العز وحركته امر لم يجز لأهل الجنة^(٣) ولا للملائكة ، ولا للنبیین ، يريد القارىء أن يجوزه لنفسه ، وأن يجعله فوق رأسه .

وانما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في اطفاء العز من قلبه من أول أمره ، وأن يجعله تحت قدميه ، ولو أن رجلاً صلى الغداة ، ثم أقبل على نفسه ، وأصلح خصلة من خصال العز ، ليس العز كله ، وآخر تصدق بوزن نفسه ذهباً على أكباد جائعة ، من وجه طيب ، لكان الأول أغبط^(٤) ، وكانت النعمة عليه أكبر ، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم .

(١) والصالحون هم أشد الناس جزعاً من ربهم وفزعاً وهم كذلك أشفق الناس على أنفسهم على ما هم عليه من التزام بمنهج الله وطاعته .

(٢) ما يجدون : ما يضمرون من مرجلة وغيظ وضغينة .

(٣) لقوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ [الحجر - ١٥ / ٤٧]

(٤) أي أفرح وأعظم .

فكيف اذا اصبح وهو لم يكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه ، لتجربته له ، ومعرفته به .

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلا العناية بنفي العز من قلبه ، ولزوم التواضع ، وذل النفس ، لتجربته لنور التواضع ، ومعرفته بفوائده ، فهنيئاً لمن شغله مثل شغله ، ما أنفعه من شغل ، وأرضاه عند مليكه ، وأروحه للقلب .

فاعتبر برجلين أمرا بالعبودية ، وأحدهما أحب أن يجعل نفسه عبداً كما أمر ، وأحب الآخر أن يجعل نفسه ملكاً ، أي هذين أولى بالجائزة من المولى ، وأيهما يستأهل العقوبة الموجهة ؟

قلت : قد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت ، فصفت لي طريق التحرز والامتناع منه ، فإن المريض إذا عرف داءه أحب أن يعرف دواءه ، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه ، يحب أن يعرف الذي يصلح به عيبه .

فقال : ان ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله ، وتكلف خروج الحوت من قعر البحر^(١) فأخرجه ، وتكلف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها ، وتكلف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض^(٢) . فأخذها وذلها وسخرها ، وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها ، وتكلف معالجة الشياطين فعالجها ، وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماؤها ، ومجاريها ومطالعها ومغارها ، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريها ومطالعها ومغارها ، وتكلف معرفة الولد اذا لم يكن من أبيه ، فعرف ذلك كله لما تكلفه. وتكلف معرفة مرض المريض وأسباب علله، بالنظر الى بوله من غير أن ينظر اليه ، فعرف داءه وعرف دواءه ، فعرف كل ذلك .

(١) البحار (الأصل) .

(٢) الغياض : الحمائل ، وهي الأشجار الكثيرة المتنفة .

وتكلف تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى ، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلف من ذلك فإنما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا ، وليس في هذا من أمر دينه الذي كلفه شيء ، وكلف تقويم نفس واحدة فلم يقد بتقويمها ، وليس عليه من فساد غيرها شيء ، لم يكلف إلا إصلاح فساد نفسه وحدها ، فلم يقد بإصلاح فسادها ، فجهل بعض الإصلاح وعلم بعضاً ، فما جهل فهو جاهل به ، ولا يتكلف علمه ، وما علمه من فسادها فهو مضيع لإصلاحه ، ولم يكلف أحد أن يصوم ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد ، إنما كلف نفسه ، ليس لأحد من صلاح أحد شيئاً ، وإنما صلاح كل امرئ وتقواه لنفسه ، وفي ميزانه ، ليس في ميزان غيره من شيء .

وهكذا النية في الأعمال ، لا تنفع نيتي عملك ، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة ، ولا تضره إذا كانت سقيمة ، وإنما المنفعة والمضرة على صاحب النية ، وصاحب العمل ، وإنما هي نفس واحدة ، فإذا صار إلى أمر نفسه^(١) لم يعرف خيرها من شرها ، ولا إقبالها من ادبارها ، يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلا بظاهر العمل والدعوى ، ولا يدري أي شيء يعمل له الدنيا أو للآخرة ، ليس يميز بين الأمرين ، ولا يفاتش الهمة فيه ، والمحبة له ، ولا الخشية فيه ، ولا يتوقف ، ولا يحسن أن يطالع ضميره ، فهو يفسد الخير بالشر ، ولا يشعر ، هو في ظاهره مقبل ، وهو في باطنه مدبر ، هو في ظاهره آبق إلى الله ، وهو في باطنه آبق من الله .

فسبحان الله ، ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف ، فشغل عنايته فيه ، وشغل فهمه به ، وأما الذي جهل فضيع من معرفته [فهو] ما قد كلف ، وأخذ عليه فيه الموائيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل ، وأنى أتاه ، وكيف

(١) إلى أمر نفسيته (الأصل) .

هو ، وما السبيل الى التخلص منه ، فيبقى عند ذلك تائهاً حيراناً ، وقد عالج ما في الهواء ، وما في البحار ، فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدر له ، وضمن له الوفاء بها ، أقبل عليها أو أدبر عنها ، فغلب هو المسكين الخلق ، وغلبته نفسه ، ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها ، وخيرها وشرها ، وخاف التلف عليها ، كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له ، لعرف من فسادها وصلاحها ما عرف من ذلك ، وقدر منه على ما قدر من ذلك ، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة .

ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا ، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة ، ومع ذلك فإن بعض المدبرين^(١) عن الله تعالى ، المعرضين عنه ، قد تسموا علماء ، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله ، وهم حيارى متصنعة ، مدخولون متشبهة ، يحسبهم الجاهل أدلاء ، وهم عمي حيارى ، فلنا الله ولنا إليه راجعون .

واعلم ان العز والتعزز ليس بغائب قادم عليك ، فتريد التحرز منه ، والامتناع عليه ، ولكنه شيء قد حل ونزل وتمكن من المنزل ، واستوى وجلس في صدر المجلس ، وأخذ منك أخيرك ، وغلب أخير موضع فيك ، واتكأ على متكته ، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم^(٢) .

وإن لم تكن تراه فيه غذيت ، وبه تربيت ، وعليه نشأت ، وإياه تعودت ، وإنما تريد مفارقة غذائك وعاداتك ، فكما أنه داء له أصل وفروع ، فكذلك دواؤه له أصل وفروع .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض^(٣) ، ولكن أدلك

(١) المدبرين عن الله تعالى : المنصرفين عن منهجه وطريقه .

(٢) يقصد بذلك القلب .

(٣) تعرض : تنصرف .

على الأصل الذي إذا عاجلته اتى على الأغصان كلها ، وهو : الأياس من جميع المخلوقين ان يكونوا يضرروا أو ينفعوا ، أو يعطوا أو يمنعوا ، أو يحيوا أو يميتوا ، فالزمه قلبك ، فإنه أصل الأصول ، ورأس الأمر وسنامه .

فإن كنت مريداً صادقاً تحب النظر في عواقب الأمور ، فأغلق عن نفسك باب الطمع ، وافتح لها باب الاياس ، وانفرد لذلك بارادتك كلها ، وتجرد في طلبه ، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة واحدة ، وتعزم عزماً صحيحاً على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك ، إن كنت تراه لذلك أهلاً ، سبحانه وتعالى ، ما أغناه عن أهل السموات وأهل الأرضين ، وما أشد اضطرارهم اليه^(١) .

فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك ، في اتباع مرضاة الله عز وجل ، والتخلص من بلية العز ، فإن الأسير مملوك لا يملك ، ولا يطمع أن يظلم أحداً ، ولا ينصر من ظالم ، ثم تجد حلاوة طعم ذكر الله ، ولذاذة المناجاة في عبادة الله . . . وإنما قلت لك : استخراج العز وقطعه عن قلبك باليأس من الناس ، لأنه يردك الى الله ، ورجوعك إلى الله سكون قلبك عليه ، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته ، والوصول الى خاصية عبادته ، وفي الوصول الى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد ، وفي النزول عند درجة العبيد اصابة شرف العبودية ، وفي اصابة شرف العبودية اكتساب القلب المذلة ، المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات ، وحقيقة الحق سبحانه وتعالى لا توجد في شيء سواه ، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقة المخصوصية . وأما علمنا بكونه ليس جوهرًا ولا عرضاً ولا جسماً فهذا علم بعدم هذه الأشياء ، وليس علماً بحقيقته ، لأن حقيقته ثابتة متحققة ، والسلب لا يكون نفس الثبوت ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول الى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى .

(١) أي ما أشد حاجتهم الملحة إليه .

ومما يحقق ما ذكرنا ان العقلاء اتفقوا على ان كل صفة شاهدها الحس ، وأدركها العقل في المكونات ، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلاً ، فاذن لا طريق له إلى معرفة الحق إلا بنفي كل ما عرفه ، ولهذا اتفقوا على أن احسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي : أن تعرف أن كل ما يتصور في ذهنك فالله سبحانه بخلافه .

ثم قال المحققون^(١) : لما كان كل ما يتصور في ذهنك فالله بخلافه ، فلو تصور في ذهنك من ذلك الخلاف شيء فالله تعالى بخلافه ، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه ، فلم يبق للعقل في طريق معرفة الله سبيل إلا أن ينفي كل ما يقع في خاطره ، ثم اذا وقع من هذا النفي شيء اشتغل بنفيه أيضاً ، وهكذا في النفي الثالث ، والنفي الرابع الى ما لا نهاية . فلو نفى أبد الأبدين ودهر الدهارين لكان مشغولاً بهذا النفي ، واذا كان الأمر كذلك بقي الحق منزهاً لواحق الفكر ، واشارات العقل ، وعلائق الضمير .

الحجة الثانية

وهي ان الانسان عاجز عن معرفة نفسه . فإن قيل : ان نفسه هي هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين : الأول ان الانسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع اعضائه الظاهرة والباطنة ، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، والثاني ان ذاته من أول عمره الى آخره شيء واحد ، واجزاء بدنه من أول عمره إلى آخر عمره غير باقي ، والباقي مغاير لغير الباقي . فثبت أن الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس .

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال : انه جسم في داخل الهيكل ، اما في

(١) يقصد بالمحققين من قالوا بالحقيقة من الصوفية وفصلوها عن الشريعة .

القلب فقط ، واما في الدماغ فقط ، أو يكون مساوياً في كل البدن ، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الاجسام التي تولد البدن عنها ، أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة . ويحتمل أيضاً أن يقال : انه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة .

واعلم ان هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم الى الآن ، وبعد ما زالت الشكوك والشبهات ، ولا شك ان اعرف المعارف في الشيء المشار اليه بقولي : أنا . فاذا كان هذا حالي في معرفة اظهر الأشياء ، فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات .

وتحقيق الكلام فيه : ان العقل كالشمع ، ولا شك ان كل ما كان أقرب الى الشمع كان ضره أكثر مما بعد عنه ، وأقرب الأشياء الى الشخص نفسه . فاذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية .

واعلم انه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان ، وتحير الخلق ان القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع ، وكذلك البحث عن القوة السامعة والقوة الذائقة ، وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات ، فإن هذه الصور المتخيلة ان لم يكن لها وجود أصلاً فكيف يكون حصول التمييز والتعيين فيها . وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها ، أو كلها شيء مجرد ، أو محلها جسم ، والكل محال ممتنع .

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجليلة بلغت حداً من الصعوبة الى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدس عن مناسبات العقول والأفكار ، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار .

الحجة الثالثة :

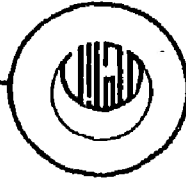
العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في زمان أو مكان ، لأن كل ما أدركه

فإنه يدركه في الماضي أو في المستقبل أو في الحال ، وكل ذلك تحت الزمان ، وكل ما يتصور فإنه إنما يتصوره أما ههنا أو هناك ، وكل ذلك بحسب المكان . وإذا قلت ان الله سبحانه بخلاف هذه الأشياء فمعرفة هذه المعرفة ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته .

فالحاصل فيه نفي غير الحق ، ونفي غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق .

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
إهداء	٧
دعاء	٩
تقديم	١١
الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي	١٧
هذا الكتاب وعملنا فيه	١٩
الفصل الأول : في أسرار كلمة لا إله إلا الله	٢١
الفصل الثاني : في فوائد كلمة لا إله إلا الله	٥١
الفصل الثالث : في أسماء كلمة التوحيد	٦٧
الفصل الرابع : في الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد	٩٩
الفصل الخامس : في شرح المباحث المتعلقة بكلمة : لا إله إلا الله	١١٩
الفصل السادس : في فضل المؤمن	١٣٥
الفصل السابع : في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا : لا إله إلا الله	١٥٣



صدر عن

دار الكتب والخطبات العامة

الابحار الطبقى فى القرآن

تأليف
الدكتور السيد الجميل



هذا الكتاب

في هذا الكتاب، يبحث المؤلف في أصل التوحيد، شعار الإسلام «لا إله إلا الله»، في محاولة منه لتعميق الوعي الإسلامي لهذا الشعار.

فهو يستعرض هذا الشعار في القرآن الكريم مبرهنًا على أنه أصل الإيمان والتوحيد، إذ لا يمكن للإنسان أن يكون مؤمنًا إلا بعد التصديق بهذا الشعار واستقراره في قلبه، لأنه مفتاح التصديق بالشق الثاني من أركان الإسلام: «محمد رسول الله».

ثم إن الباحث ينتقل إلى استعراض هذا الشعار، في السنة النبوية الشريفة، التي تجعل لهذا الشعار شرفاً عظيماً.

كل ذلك بأسلوب عقلي ممتع ومقنع، يأخذ بيد القارئ، برفق، إلى الاقتناع والتسليم بأن العقيدة ليست صماء، بل هي «حركة في داخل النفس، وفي داخل التاريخ... وفي الاتصال بين السماء والأرض، كفيلة باليقين».

ودار الهلال، إذ تقدم هذا السفر الثمين لقرائها الكرام، فإنها ترجو الله أن ينفع به، وأن يجعل عملها خالصاً لوجهه، والعون على الاستمرار في خدمة الإسلام والمسلمين.